رأي في أبي العلاء

إلياس الحويك

الأمناء

مدرسة الفن والحياة

شعارهم: كريم على نفسي

أهدافهم

١ ألا يكون الفن ترفاً رخيصاً ولا كسباً متجراً يخدم الشهوات والأهواء ويحمي الأصنام والأوهام

١ وأن يكون الفن نشاطاً وجدانياً سامياً يسعد الفرد والأمة إذ يعني حاجة وجدانية في الحياة الكريمة غايتها كسائر ألوان نشاطها العقلي

٢ ألا يكون الفن نسياناً للذاتية وإهداراً للشخصية يجول في الأرجاء يرجم بالظن ويحدس بالوهم

٢ وأن يكون الفن في مصر مصرياً صريحاً فهو في كل إقليم طابع شخصية وصورة نفسية وهو في الأقاليم المتواشجة ذو طابع [illegible] خصائص خاصة

٣ ألا يكون الرأي الفني العام توجيه مسيطر ولا احتكار متجر ولا تهويش مضلل ولا وضع يد ولا مضي زمن

٣ وأن يكون الرأي الفني العام تقديراً متجرداً يستعصي على الأهواء ويحكم النقد فيذهب الزبد جفاء ويمكث الجيد على الزمن

٤ ألا يكون درس الأدب وتاريخه تناولاً سطحياً وترديداً تقليدياً لما لا يساير تقدم الإنسانية ورقي الحياة العقلية

٤ وأن يكون درس الأدب وتاريخه على نحو تصحح الخبرة الإنسانية بالحياة والنفس والجماعة ويمثل التقدم الإنساني والرقي العقلي

شيخ المدرسة «الأمين الأول» | أمين الخولي | أستاذ الأدب بجامعة فؤاد الأول

١٩٤٥

جماعة الكتاب

أخرجت هذا الكتاب بمناسبة العيد الألفى لميلاد أبى العلاء المعرى « ١٣٦٣ هـ »

أمين الخولي

رأي في أبي العلاء

« الرجل الذى »
« وجد نفسه ! »

جماعة الكتاب

الى

الذين يرفعون القواعد من المدرسة

النفسية فى دراسة الأدب وتاريخه

مقدمة

من أجل المنهج

تفهمت أبا العلاء سنين ، حتى انتهيت إلى هذا الرأى ، الذى أعلنته منذ سنين - ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م -؛ ثم تركته بعدها للمدارسة والترديد ، حتى نشر اليوم . فلعله بذلك ، يكون قد جاء الحياة سوياً قوياً .

قرأت كل ما أحسب ، أن قد رأى الشمس ، من آثار أبي العلاء ، نثيرا أو نظيما ، كاملا أو منقوصا . . . وليس كل الذى خلف أبو العلاء ، قد جاءنا . . ولا كل الذى سمي من آثاره ، قد أبرأنا الذمة ، من الجد فى طلابه . . . وبذلك كان اكتفائى بما وجد - كاكتفاء قومى حولى - غير وفاء بالمنهج الادبى ، كما أفهمه وأدعو إليه . . (١)

واعتمدت فى قراءتى ، على النسخ المعروفة ، فى خير صور نشرها ، وليس كل الذى نشر منها ، قد أثبت نسبه ، وحقق نصه ... وبذلك كان اكتفائى بما نشر - كاكتفاء قومى حولى - غير وفاء بالمنهج الأدبى ، كما أفهمه وأدعو إليه . .

على أنه ، إن يكن قومى - أفرادا وجماعات - قد آثروا عدم الوفاء بالمنهج إيثارا ، بعد ماذعوا إليه جهارا ، وبعدما عنى به آباؤهم قبلهم ، ثم عنى به المحدثون

---

(١) أ . الخولي فى كتاب «الي الادب المصرى» ص ٨٤ وما بعدها

فى الغرب حولهم ، فإنى أنا ، إنما اضطررت إلى هـذا القـدر ، من غير الوفاء اضطرارا . . . ثم ها أنذا أقدم به قولى ، صدر الحديث معك ، حيث يلتمس رضاك بالتقديم أو التقريظ . . فهل تدرى لم كان هذا ؟ . . لا تعجب إذا ما قلت لك : إن ما كان من غير الوفاء بالمنهج ، إنما كان من أجل المنهج نفسه ،

المنهج الأدبى خارجى وداخلى

وجليـة الأمر ، أن هـذا الذى ذكرنا أمس ، ونذكر اليوم ، من خطى الدرس الأدبى ، كالجمع المستقصى للنصوص ، ثم التحقيق المتثبت لهـا . . إنمـا هى من المنهج ، جنباته ودعاماته المادية ، أو إن شئت فسمها : المنهج الخارجى . . ثم ما بعد ذلك من الفهم الدقيق المستشف ، هو من المنهج لبابه وروحه ، أو إن شئت فسمه : المنهج الداخلى . . ولا تجدى علينا العناية بهذا المادى الخارجى ، إلا طلبا للمعنوى الداخلى . . فلما قلت فى المنهج الخارجى ، ما قلت ، وعلمت ما علمت ، ثم كانت المناسبات المتـكررة (١) فى إحيـاء أبى العلاء ، سنحت - فى تقـديرى - فرصة للتحدث فى المنهج الداخلى ، وتقـديم المثال المرجو فيه ، من دراسـة أبى العلاء ، وفنـه ، لأنه - فيما أنست منذ بعيـد - رجل قد صدق

(١) كانت أولى هذه المناسبات اعتزام كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول سنة ١٣٥٦ ﻫ إقامة أسبوع للمعرى ، وإن لم يقم . . ثم كانت ثانيتها اذاعة الاخبار عن تعاون الشرق والغرب على احياء ذكرى الرجل بتشييد مقبرة له ، والى جانبها مكتبة تضم جميع ما كتب عنه ولهذه المناسبة الثانية ، رأيت أن أذيع نتيجة درسى له فى المحاضرات العامة ، التى تنظم الـكلية موسمها السنوى ، فى الجمعية الجغرافية الملـكية ، فألقيت خلاصة هذا الرأى بمحاضرتين فى شهر ابريل سنة ١٩٤٠ م

الناس الحديث عن نفسه . وفى حياته وظروفها وأزماتها ، ثم فى فنه وسعته وتساميه . . . فى كل أولئك ، مجال رحب للتفهم النفسى ، والتحليل الشخصى ، والانتفاع بما عرفت الدنيا الحديثة ، عن النفس البشرية وعقدها ، وبذلك يكون أبو العلاء خير مثال للعناية بالمنهج الأدبى الداخلى . . وهو ما يهدف إليه هذا البحث ، ويقوم عليه ذلك الرأى فى فهم أديبنا وأدبه ، فهما صحيحا ، ذا أساس نفسى ، تتصل فيه شخصية الأديب بأدبه ، ولا يكتفى فيه بنظرات ادعائية ، أو مقررات تقليدية .

إكمال المنهج الداخلى

نحاول من هذا الدرس ، وذلك المثال ، المثابرة على تحقيق الغاية المرجوة ، التى نؤمن أنها أجل وأكبر ما ينقص حياتنا الأدبيـــة ، تلك هى : تحرير المنهج وتكميله . . والمنهج هو الدستور ، الذى يقرر أصول التفكير على اختلاف ألوانه ، ويضبط قواعد الإدراك على تنوع قواه فى الانسان . . وعند الجامعة والجامعيين يلتمس الناس هذا التحرير والاكمال ؛ وعنهم يؤخذ ؛ ولا خير فى عمل من أعمالهم ، مالم يقم على المنهج المصحح الكامل . : وإلا فما حال ذلك الذى يعانى درس الأدب وتاريخه : فيصف العصور ، ويحلل الشخصيات ، ويتذوق الفن ، ويتحدث عن مزاج الأمم والأفراد ، ويحكم تلك الأحكام البعيدة المدى ، الجريئة التناول ، فى كل ذلك جميعا . . وهو لا يدرى كيف يثبت نصا . . ، ولا كيف يحقق نصا . . وأما كيف يقرأ نصا ، قراءة دارس

متفهم، فهو عليه أبعد وأشق!! من أجل ذلك: كانت العناية بالمسألة المنهجية، آكد وأعظم ما تخدم به النهضة الأدبية.

ولئن قلت – قريبا – إن القدماء قد أصلوا المنهج الأدبى، فإن من الحق أن أقيد ذلك بأنه تأصيل للجانب الخارجى، الذى أشرنا إليه لا غير.

فقد قرروا من القواعد فى جمع النصوص ونقلها وإثباتها وتحريرها، ما لا يزال حتى اليوم كافيا صالحا للبقاء...

أما المنهج الداخلى، المتناول لفهم النص الادبى، فلا مفر لنا من تقرير أنهم فيه لم يوفوا على الواجب، وأن فرق ما بين عملهم فيه، وبين ما ينبغى اليوم منه، ليقاس بفرق ما بين التقدم العقلى. بين أمسهم الغابر ويومنا الشاهد، وما بين معرفة الانسان بالكون وظواهره، والنفس وقواها، فى عهدهم البعيد، وعهدنا الحاضر.. فإذا ما دعونا الى تحرير المنهج الخارجى وتصحيحه، فذكرنا من عملهم فيه، وعمل غيرهم (١) ما يتكامل ويفيد، فإننا فى المنهج الداخلى وفهم النص الأدبى، إنما نطالب التكميل والإضافة؛ وزيادة ما لم ينالوه فى هذا السبيل، أو شعروا به شعورا مبهما ضعيفا؛ وكذلك يجب أن نقوم بعملين اثنين: تحرير المنهج الخارجى، وتكميل المنهج الداخلى.

ويبين لك هذا التكميل، أن تقدر ما ورثناه عنهم؛ ومضينا نتابعهم عليه فى فهم النص الأدبى وتذوقه، إذ تراهم وترانا، إنما نفهم النص من مادته ولفظه فحسب: نفسره تفسيرا لغويا، سطحيا، أو بعيدا عن السطح قليلا (٢) ونوجهه توجيها نحويا، بقدر ما بين الاعراب والمعنى من صلة؛ إن لم نجاوز ذلك إلى

---

(١) أ. الخولي محاضرات لطلبة الماجستير بكلية الآداب، عن المنهج النقلى قديما وحديثا (مخطوطة)

(٢) راجع وصف التفسير اللغوى العميق فى كيفية دراسة مفردات القرآن من رسالة التفسير لكاتب هذا، ص ٤١–٤٤، الطبعة الثانية لجماعة الكتاب

عناية خاطئة بالصناعة النحوية ، ليست من العمل الأدبي في شيء ما .. ثم نبين مافيه من تفنن أدبي ، بيانا تشير إليه إيماء ـ بل قد تسيء اليه أحيانا ـ مقررات البلاغة الفلسفية التي ورثناها وتدارسناها .. وفي حدود هذه الخطة اللغوية النحوية البلاغية ، على ضيقها وجمودها ، نفهم الأدب وتتذوقه وننقده ونقدره، ونؤرخه ونحكم عليه . . وكأنما كل ما بين المتفنن والناس ؛ قد تجمع في ذلك الكيان المادي اللفظي، الذي تحده المعاجم ببيان المفردات، بيانا أثريا جامدا ... والقواعد النحوية لتأليف الجمل في سطحيتها وتصنعها...والضوابط البلاغية لجمال الفن القولي ، في جفافها وتصورها . . ! ! لا والجمال ماكان الفن هذا الحطام أبدا . . وإن الفن حينما يعبر عن الاحساس بالجمال ، ذلك التعبير الكلامي ، الذي هو الأدب ، إنما يسجل خلجات وخطرات وجولات ؛ بل تيارات نفسية لصاحب التعبير ، هي التي دبرت ذوقه ، ووجهت حسه ، وألفت نصه ؛ وإنها لتدفعه أحيانا دفعا قويا ، يكون معه مستهوى مسحرا ، يقول مايجد ، وقد ملك عليه نفسه ، فجرى به لسانه ، قبل أن تقدر قواه الواعية ، كيف نظم لفظه ، أو أقام إعرابه وأجرى استعارته ، أو نسق عبارته ، تعريفا وتنكيرا ، أو تقديما وتأخيرا . الخ ... بل لعل الأديب صاحب الأثر نفسه ـ قد يحتاج ـ فيمن يحتاجون ـ إلى تدبر قوله ، وتبين تأليفه ، فلا يكون أقل حاجة في ذلك من سامع يتفهم ، وقارىء يتأمل . . والذين عانوا الفن القولي ، في صورة من صوره ، يدركون هذا الذي أصفه جليا ، ويفهمونه بديها . . والنقاد الأدباء يعرفون ذلك جيدا . .

نعم . . إن وراء هذا الظاهر الخارجي ، لقوى نفسية تصنع الفن ، وتؤلف القول، وتصور المعنى ، وتجرى ذلك كله ، على يد المتفنن ، بعمل لو زعمت

أن منه ماليس إراديا ، لم تخطىء ولم تبعد . . وإن عبارات صاحب الأدب انتظل تحمل لذلك كله آثارا قوية - وإن لم يشعر بها أصحاب الخطة اللفظية . جلية ، وإن لم يستبنها أصحاب الطريقة المادية ؛ وعلى متفهم الفن أن يلتمس ذلك ، بخبرته النفسية ، ولمحاته الوجدانية ، ويتبينها بأضواء المعرفة الانسانية ، لحركات النفس وحياتها ، وتأثرها وتأثيرها . . .

وكذلك ينبغي أن نكمل المنهج الداخلي للأدب ، فنفهم الأدب والأديب فهما نفسيا . . ومن ذلك الفهم النفسي ، سقت هذا المثال من فهم أبي العلاء ، إذ انتهيت فيه إلى هذا الرأى . . .

***

ولو شئت أن أجمل لك هنا خطى الفهم النفسي للأدب والأديب ، وأبين أركان هذا التكميل المنشود للمنهج لقلت إنها :

١ — النظر في أدب الأديب جملة، وعلى أن له وحدة متماسكة، بحيث يتصل في فهمك وتذوقك ، قريبه ببعيده ، وأوله بآخره ... ثم أنت منسقه على فنونه ، وناظر إليه فنا فنا ، على النحو الذى أصفه بعد ، بأوسع من هذا الاجمال هنا

٢ — وصل الأديب بأدبه ،وفهم الادب بشخصية صاحبه، كما تفهم الشخصية الأدبية نفسها بآثار صاحبها ؛ في غير دور ولا تداخل ؛ إذ يتقدم من فهم الشخصية في ظروفها الجسمية والحيوية ومالها ، مايعين على فهم خفايا الادب ، ثم يتأخر من فهم هذه الخفايا الادبية،مايكمل فهم الشخصية النفسية لصاحبها ؛ فيتم الوصل بين الادب والاديب في هذا الفهم النفسي ؛ وصلا مجديا غير مضطرب .

٣ ـ الانتفاع الدائم المتجدد ، بما عرف ويعرف ، فى دوائر الدرس النفسى المجرب الدقيق ، لقوى الانسان وملكاته ، ومشاعره ، وغرائزه ، ويتم هذا الانتفاع بتعاون الدرسين : النفسى والادبى ، تعاونا يخص علم النفس الأدبى بالعناية المثمرة ، التى تمد الأدباء ، بالأضواء الكافية لفهم الأنفس ، وتكشف لهم عن آثار ذلك فى الفنون .

ولا أزيد الآن على هذا الاجمال ، لأركان الفهم النفسى للأديب والأدب ، مكتفيا هنا بالمثال العملى الذى يقدمه « رأى فى أبى العلاء » تاركا تفصيل هذه الخطوات لفرصة أخرى ، لعلها ـ إذا أعان الله ـ تكون تكميلا لدرس أبى العلاء نفسه .

حلقات متصلة

وليس هذا الذى أحدثك به عن الفهم النفسى للأدب بدعا من القول ، لم أحاوله قبل الآن ، فى تحرير مناهجنا الأدبية : كلا . . بل إنك حين تقدر اتصال الدراسة الأدبية فى صورها المختلفة ، تستبين هذا القول ، مسبوقا منى بمحاولات بعيدة العهد ، غير ضيقة المدى ، فى سبيل تأصيل الدراسة النفسية الادبية ... ومن هذه المحاولات ما كان قبل الآن ، فى تكميل منهج البلاغة بحيث تصير « فن قول » يقدم له بمقدمة نفسية ، تدعم صلة فن القول بعلم النفس الادبى ... كما أن منها القول « بالتفسير النفسى للقرآن » وهو كتاب العربية الاكبر ، وتاج أدبها ... وما تم من ذلك ، فى تطبيق غير قليل لهذا الاصل النفسى فى التفسير ... ثم حديثى عن هذا الرأى فى « الاعجاز النفسى للقرآن » وتعليله تعليلا يقوم على تقدير أن العنصر النفسى

فى الأدب، هو لبابه وروحه (١) . فإذا ما دعوت اليوم إلى الفهم النفسى للأدب والأديب ؛بل إلى رفع قواعد «المدرسة النفسية للأدب» فليس ذلك عمل اليوم ، ولا بادى الرأى ، بل هى حلقات متصلة ، يشد أولها آخرها ، وترى الاتصال بينها قويا متسقا ، ومن هنا أهديت هذا الرأى ... «الى الذين يرفعون القواعد من المدرسة النفسية فى دراسة الأدب »

ثم البيئة .. أيضًا

وإذ تردد الحديث عن المنهج الأدبى ، وتحريره وتكميله ،وقد سبقت قبل الآن كلمتى عن «إقليمية الأدب » وشدة تأثر الفن ببيئته ، وضرورة مراعاة ذلك فى درس الأدب وتاريخه ، فلعلك سائلى : أفلا يكون إذن أهدى لدرس «أبى العلاء» أن يقوم به أحد أبناء بيئته ؟ . فأجيبك أن نعم . . لكن هناك أشياء فى هذا الدرس ، وفى الأديب المدروس ، ينبغى أن تقدرها .

فأما فى الدرس فإنى إنما حاولت فهم الكيان النفسى لأبى العلاء ، وتبين سمات شخصيته الفنية ، قبل كل شىء . وتركت ماوراء ذلك من بقية الدرس لأدبه : لفظا ومعنى وموضوعا ، وفى ذلك يكون ابن بيئته أهدى منى ، وهو باق له .

وأما فى المدروس ، فهناك معنيان كبيران ،يحلان لى درس صاحبنا :

أولها : أنه حين أغمض عينيه مبكرا ، عما حوله من ظواهر الوجود ، قد عكف على باطنه ، يستلهم مذخوره ومحفوظه ، فخف نوعا ما، أثر البيئة المادية عليه ، واعتمد على أقدار مشتركة من الميراث الأدبى للعربية ، جعلت الصلة بينه وبين

(١) اقرأ الاجمال عن ذلك كله، فى رسالة «البلاغة وعلم النفس» لكاتب هذا .

أبناء البيئات الأخرى قريبة قوية .

وثانيهما : وهو الأجل الأخطر ، أن أبا العلاء فى أدب العربية ، قد تفرد ـ أو كاد ـ بجعل الفن القولى ـ كما ينبغى أن يكون الفن ـ أداة لفهم الكون والإنسان . كما كان الدين ، وكانت الفلسفة ، وكان العلم ، وكان غير ذلك ، من محاولات إنسانية خالدة . وبذلك أخضع مشكلات الحياة والكون الكبرى ، لتأمل المتفنن ووجدانه ، وأشرف من ذلك على آفاق بعيدة ، تلاقى آفاق التفلسف والتدين والتصوف فى سعتها ، فدنا ـ بذلك كله ـ من نفوس متفهمى الانسانية جميعا ؛ بله ؛ متذوقى أدب العربية .

وساغ لكل مستمتع بالفن ، متأمل فى الوجود ، أن يجول فى آثار أبى العلاء ؛ فيجد الخفقات الكبرى ، للروح الانسانية ، ويبصر من أسرار هذا الهيكل البشرى ، ما تكشفه له أضواء الخبرة النفسية .

وبهذا القدر كان أبو العلاء قريبا من البيئات العربية ـ بل الشرقية ؛ أو غير الشرقية أيضا ـ قرباً لا يقصر درسه على أبناء بيئته .

وبعد ..

فمن أجل المنهج الأدبى الداخلى واستكماله ، حاولت درس أبى العلاء وفنه ، على أساس نفسى . . وأدعو الى درس أدبائنا جميعاً على مثل هذا الأساس ؛ لنفهم فنهم من أرواحهم ، لا من ألفاظهم فحسب . .

أمين الخولى

على الدهر

« وخامل ما نأت عنه نباهته كأنه الجمر غطى ضوءه اليبس »

هكذا قال المتوحد الحبيس ، أبو العلاء ، ولعله عنى نفسه ، فما نأت عنه قط نباهته ، رغم انكماشه واستتاره . . . وفى هذا العصر الحديث، كان أبو العلاء موضع العناية الدائمة ، فمنذ بضعة وخمسين سنة كان يقارن بينه ، وبين ملتن الشاعر الانجليزى . . (١) ومنذ قرابة ثلاثين عاما ، كان يقابل بشوبنهاور الفيلسوف الألمانى . . (٢) ومن ربع قرن مضى، كان يدرس فى الجامعة المصرية الأولى (٣) حينما كان أحد أبناء الشام (٤) يبعثه من مرقده ، ليطوف به فى بلاد اليونان ، وايطاليا وفرنسا ، يلقى معه آلهة الحكمة والفنون ، ورءوس الفلاسفة، وعظماء الرجال، ثم ما زال هذا الحديث حتى اليوم متصلا .

انتهى المحدثون الى أن أبا العلاء كان فيلسوفا حقا(٥) ، وأن المسلمين لم يعهدوا بينهم فى قديمهم وحديثهم فيلسوفا مثله ، قد جمع بين الفلسفة العلمية والعملية (٦). إلى أقوال تشبه ذلك

ولكن هذه الشخصية القوية المنيفة ، التى صدر عنها ذلك الأدب الغزير

(١) المقتطف م ــ ١٠، ص٤٤٩ وما بعدها .
(٢) مقدمة رسالته « ملقى السبيل » بقلم ح. ح عبد الوهاب باشا
(٣) «ذكرى أبى العلاء» للدكتور طه حسين بك
(٤) الاستاذ معروف الارناءوط ، فى رسالته « فردوس المعرى » التى طبعت ببيروت سنة ١٩١٥ . ثم قلده فى ذلك من قلد .
(٥) ذكرى أبى العلاء، طبعة أولى ص ٣٣٠
(٦) المصدر السابق ص ٤٠٨

واختلجت جوانح صاحبها ، بأشتات الخواطر والمعانى ، فى جميع فروع المعرفة ؛ وأقسام الفلسفة ، لا تزال موضعا للدرس ، ومجالا للبحث .. وهذه محاولة جديدة لفهم الكيان النفسى لأبى العلاء ، وإدراك العوامل المؤثرة فى حياته وتوجيهها ، وتقدير شخصيته العامة ، على أساس من الواقع الجسمى والنفسى للرجل ، دون إسراف فى الفروض ، ولا ذهاب فى الاعتبارات الادعائية إلى حد بعيد ..وكأنما اطلع أبو العلاء بظهر الغيب ، إلى هذه المحاولة الجديدة فى فهمه يوم قال :

يكررنى ليفهمنى رجال ... كما كررت معنى مستعادا

سقط الزند ١:٨٥١

وإذ قد ولع المحدثون بوصف الرجل بالفلسفة ، ودعوه الشاعر الفيلسوف ، وحكيم الشعراء ، وشاعر الحكماء ، وإمام الحكماء ، وأشباه ذلك ، فانا ندير القول على أساس من التقسيم الفلسفى ، فنتحدث عن :

مسألة المعرفة عند أبى العلاء

وهو فى سعة من القول ، وفكاك من قيود النظم ، يقول فى الفصول والغايات(١) : «يدرك العلم بثلاثة أشياء : بالقياس الثابت ، والعيان المدرك ، والخبر المتواتر» كما يقول : «العقل نبىء ، والخاطر خبىء والنظر ربىء ، ونور الله لهذه الثلاثة معين(٢) »..فالمعرفة عنده ممكنة ، وسبيلها العقل ، والمشاهدة ، والخبر .. وهو يؤيد ذلك فى شعره ويكرره ، إذ يقول :

خذوا فى سبيل العقل تهدوا بهديه ... ولا يرجون غير المهيمن راج

(١) ص ٤٦٨ (٢) ص ٢٠٨

ولا تطفئوا نور المليك . فانه   ممتع كل من حجى بسراج
١٦٩:١ (١)

فاسأل حجاك ، اذا أردت هداية   واحبس لسانك أن يقول مجازا
٦:٢

تفكر فقد حار هذا الدليل   وما يكشف النهج غير الفكر
٣٥٧:١

فيطمئن الى هدى العقل ، ويرى التفكير الصحيح سبيل الوصول ، ويقول :

إذا تفكرت فكرا لا يمازجه   فساد عقل صحيح . هان ما صعبا
٨٣:١

ولم يتناول درة الحق غائص   من الناس ، إلا بالروية والفكر
٣٠٥ : ١

ولو صفا العقل ألقى الثقل حامله   عنه ، ولم تر فى الهيجاء معتركا
١٣٣:٢

وحسن ظنه فى ذلك فقال :

اذا قرن الظن المصيب من الفتى   بتجربة ، جاءا ، بعلم غيوب
١٠٢ : ١

ورأى فى الاستدلال مخلصا من الحيرة :

تحير مسترشد   فوفق لما استدل   ٢١٧:٢

وتحدث عن القياس ، حديث الواثق المطمئن ، فكان من قوله فى ذلك :

وقس بما كان ، أمرا لم تكن تره   فالرجل تعرف بعض الموت بالخدر
٣١١ : ١

أيها الملحد ، لا تعص النهى   فلقد صح قياس واستمر
٣٥٣ : ١

---

(١) الرقم الاول لجزء اللزوميات والثانى للصفحة ، والنسخة المشار اليها هنا هى المطبوعة بمطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٣ هـ

وفى تصديق الخبر يقول :

فاعرف لصادقك الانباء موضعه   واجز الكذوب على ما قال تكذيبا
١: ٨٨

ويرى تكذيب الصادق رزأ

ومما أدام الرزء تكذيب صادق   على خبرة منا وتصديق كاذب
١ : ٩٧

وهو يمضى قدما فيحذر مما يفسد هذه المدارك المعرفة ، ويدخل الخطأ عليها فينصح بأن يتقى الحاكم بالعقل هواه وعاطفته ، ولا يدع لهما سبيلا على حكمه ونظره :

ومن كان فى الاشياء يحكم بالحجى   تساوى لديه من يحب ومن يقلى
٢: ١٨٤

وأن يرجع مستمع الاخبار الى عقله :

وخبره صادق بالحديث   فان شك فى ذاك فليختبر
١ : ٣٥٩

والحديث المسموع يوزن بالـ   ـعقل فيضوى اليه عرف ونكر
١ : ٢٨١

وأما تمجيده للعقل ومقدرته ، فشيء يوفر الثقة التامة به ؛ فمن قوله فى ذلك يخاطب الروح :

تركت مصباح عقل ما اهتديت به   والله أعطاك من نور الحجا قبسا
٢ : ٢٧

والعقل أولى بالاكرام والتصديق :

نكذب العقل فى تصديق كاذبهم   والعقل أولى باكرام وتصديق
٢: ١٢٦

وعليك العقل فافعل ما رآه جميلا :

عليك العقل ، وافعل ما رآه   جميلا فهو مشتار الشوار
١ : ٣٢٦

والعقل خير مشير ضمه النادى :

فشاور العقل ، واترك غيره هدرا   فالعقل خير مشير ضمه النادى

١:٢٢٩

والعقل قطب المدار :

اللب قطب ، والامور له رحى   فبه تدبر كلها وتدار

١:٢٦٧

ومن اهتدى بسوى العقل هلك :

من اهتدى بسوى المعقول أورده   من بات يهديه ماء طالما تبلا

٢:١٦٩

والعقل أفضل أنصاره وأعوانه :

لا أشرب الراح أشرى طيب نشوتها   بالعقل أفضل أنصارى وأعوانى

٢:٣١٥

والفكر حبل يناط بالثريا :

الفكر حبل متى تمسك على طرف   منه ينط بالثريا ذلك الطرف

٢ : ٨٩

والعقل بحر لا يغيض :

والعقل كالبحر ما غيضت غواربه   شيئا ، ومنه بنو الايام تغترف

٢: ٥٩

والعقل يحيل ليلك نهارا مشمسا :

وإنك إن تستعمل العقل لا يزل   مبيتك فى ليل ، بعقلك مشمس

٢: ٣٢

ولا إمام لأبى العلاء سوى العقل :

كذب الظن لا أمام سوى العقـ   ـل مشيرا فى صبحه والمساء
فاذا ما أطعته جلب الرحـ   ـمة عند المسير والارساء

١:١٩

وسيرحل عن الدنيا ولا إمام له سوى العقل

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهدا   وأرحل عنها ما إمامى سوى عقلى
٢: ١٨٣

وهذا العقل الامام المتبوع ، نبي عنده :

أيها الغر ، أن خصصت بعقل   فاسألنه ، فكل عقل نبى
٢: ٣٦١

وقد سمعناه ناثرا يقول : العقل نبيء . . . وهو حين يطمئن الى المعرفة هذا الاطمئنان ، ويمجد العقل هذا التمجيد ، يشاجر السفسطة ويخالفها ، ويقول :

وقال أناس ، ما لأمر حقيقة   فهل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعمى
وشكك فى الايجاب والنفى معشر   حيارى جرت خيل الضلال بهم سَعما (١)
فنحن وهم ، فى مزعم وتشاجر   ويعلم رب الناس ، أكذبنا زعما
٢: ٢٤٢

هذا الفتى أوقح من صخرة   يبهت من ناظره حيث كان
ويدعى الاخلاص فى دينه   وهو عن الالحاد فى القول كان
يزعم أن العشر ما نصفها   خمس ، وأن الجسم لا فى مكان
٢: ٣٣٣

٭٭٭

تسمع ذلك كله ومثله معه فتقول إن المعرى رجل عقلى لا يؤمن الا للعقل وحده ، وهو يرى رأى الفلاسفة النظريين من اليونان والمسلمين فى الاعتماد على العقل خاصة (٢)

لكن رويدك واستمع اليه . فانه بعد ما أدرك العلم بالخبر المتواتر شعر بخطر النقل على الاخبار وإفساده إياها

(١) السعم ضرب من السير لكن للابل كما فى القاموس (لا للخيل)
(٢) ذكرى أبى العلاء ط اولى ص ٣٣٩ ، ٣٤٠

والنقل غيّر أنباء سمعت بها … وآفة القول تقليل وتكثير

١:٢٥٩

أتاني باسناده مخبر … وقد بان لي كذب الناقل

٢:٢١١

فاتهم الأخبار لهذا، وتساءل:

هل صح قول من الحاكي فنقبله … أم كل ذاك أباطيل وأسمار!!

١:٢٥٧

خبرتني أمرا، فقل راشدا … من أين هذا الخبر الشارد

١:٢١٢

والشهادة يؤديها العدول بين يدي القاضي متهمة عنده:

ورب شهادة، وردت بزور … أقام لنصها القاضي عدوله

٢:١٧٥

وهاجم الخبر الديني:

أتتني أنباء كثير شجونها … لها طرق أعيي على الناس خُبرها

صفادونها قس النصارى وموبذ الـ … ـمجوس وديان اليهود وحبرها

وخطوا أحاديثا لهم في صحائف … لقد ضاعت الأوراق فيها وحبرها

١:٢٥١

وعاب اعتماد الأديان على الأخبار:

وإذا غلبت مناضلا عن دينه … ألقى مقالده الى الأخبار

أقسام لفظك ستة وجميعها … لا مين يلحقه سوى الإخبار

١:٣٤٢

آليت ما الحبر المداد بكاذب … بل تكذب العلماء والأحبار

ووجدت أصناف التكلم ستة … بالمين منها أفرد الإخبار

١:٢٧٠

وتعقب ذلك بما يستوفى فى الكلام عن رأيه فى الدين . وهو لا يقف عند مهاجمة الخبر الدينى وحده بل يجاوز ذلك الى الخبر كله ، ويرى الافتراء عملا متوارثا فى الناس :

وجدت أباك مفتريا حديثا   فأنت على مقص الشيخ تفرى
٣٢٤:٣

وتنتهى به تجربته إلى ألا يصدق خبرا :

لقد جربت حتى لم أصدق   حديثا عن قريب مدى نقيلا
١٧٤:٢

فيخرج الخبر من أن يكون عنده سبيل معرفة ، إذ يقول :

لم تعطنا العلم أخبار يجىء بها   نقل ولا كوكب فى الأرض مرصود
٢٠١:١

✡ ✡ ✡

وتدع الخبر إلى القياس الذى سمعت تقريره له ، فإذا هو يبغيه فلا يستطيعه :

قد نفضت السهام أبغى المقاييـ   ـس ، فلم يثبت الرمية نفضى
٦٢:٢

وإذا المقاييس قد عيت بأمور الناس :

لعمرى لقد أعيا المقاييس أمرنا .   فخندسنا عند الظهيرة مظلم
٢٢١:٢

وإذا هذا القياس لم يثبت للناس شيئاً :

رموا فأشووا ، ولم يثبت قياسهم   شيئاً سوى أن رمى الموت تسديد
٢٠٣:١

وهكذا هو يتهم قياسهم :

وقد بالغوا فى قياس بان زخرفه   يُوهى العيون ولم تثبت له عمد
١٩٧:١

وهو لا ينكر قياس الناس لخطئهم فيه ، بل لأن القياس نفسه عمل خاطئ ،

إذ أن أحكام الحوادث لا تقاس :

غنىّ زيد ، يكون لفقر عمرو — وأحكام الحوادث لا يقسنه

٢٩٧:٢

وليست هناك نواميس ثابتة ، ولا أصول لهذا النظام مضطردة ، فالقياس ضـــلال :

تروم قياساً للحوادث ، ضلة — وتلك أصول ليس يجمعها حصر

٢٤٧:١

* * *

ولعـل هذا التضليل للقياس ، لم يجىء إلا متأخرا ، وقد سبقته مراحل أخرى ، نستخلصها فى سهولة ، من شعره : فأبو العلاء يتشوق للمعرفـة ، التى سمعنا إلحاحه فى تقريرها ، فهو يقول متلهفا ، فى وصف الانسان :

ويجهل حتى يسأل الفلك الذى — يدور عليه ، كيف بدء مداره

يحاور نجم الليل جهلا ، كأنه — على طول نأى ، طامع فى انحداره

٣١٠:١

وهو يجد الحق فى دار حريزة ، يطوف بها متلصصا ، ولا يفيده التطواف فى سبيل الحق شيئا ، بل هو فى حندس مظلم ، لم يلف من يهديه إلى معلم :

طوفتَ فى الآفاق عصرا ، فما — أسفرت من حندسك المظلم

سألتَ أقواما ، فلم تلف مَنْ — يهديك من رشد إلى مَعلم

٢٧٠:٢

والجهل أغلب على الناس :

والجهل أغلبَ ، غير علم ، أننا — نفنى ، ويبقى الواحد القهار

٢٧٤:١

فهو يصرخ من الحيرة ، فيقول ناثرا : يا مُقابس ، ويا مقتابس ، إن أمرنا لملتبس (١) . ويقول : و بعلمه ـ أي الله ـ أرخيت السجوف ، دون المنجوف ـ المستخرج ـ وثبت القِتر ، في الكِتر (٢) ـ أي النصل في السنام ـ وهكذا فالعالم حائر :

عالم حائر كطير هواء وهواف تضمها الدأماء (٣)

١ : ٤٣

كأننا في قفار ، ضل سالكها نهج الطريق ، وما في القوم خريت

١ : ١٣٦

تحيرت العقول وما أساءت دوائب في التقى متهجدات

١ : ١٣٤

فالنفس قد شكت في يقين الأمر

والنفس شكت في يقين الأمر وا كفان إن رمتا قنيصا شكتا

١ : ١٤٣

وكأنما ساد الشك عصره كله ، لا هو وحده :

وقد هدم التيقن في زمان حصلنا من حجاه على التظني

٢ : ٣١٧

وما العلم إلا ظن فحسب :

ومن عجب دعواك علما وحكمة وعلمك شيء قيل بالظن أو حزى

٢ : ٣٦٨

بل قد اختلط العالم ، فلا تطلب لبابا صريحا :

ولا تطلبن اللباب الصريح فقد سيط عالمنا وامتزج

١ : ٢٧٦

وهكذا ينفي أبو العلاء اليقين :

---

(١) الفصول والغايات ص١٩ (٢) المصدر السابق ص ٢٩ (٣) هوالى البحر كهوام البر ، والدأماء البحر .

أما اليقين فلا يقين ، وإنما أقصى اجتهادى أن أظن وأحدسا

٢٨:٢

نعم،إنه ينفى يقين علمه بالغد ، فى هذا الموضع الأخير ، فهل تراه لا ينفى اليقين إلا فى الأمور الغيبية ، ولكنه لا ينفيه فى عالم الشهادة ، ولا يبسط ظل الشك على هذا العالم (١) . . ؟ إن حسبت ذلك ، فاستمع إليه ، إذ ينفى العلم فى الظواهر الطبيعية وتعليلها فيقول :

لا يعلم الشرى ما ألق مرارته اليه ، والأرى لم يشعر وقد عذبا (٢)

سألتمونى فأعيتنى إجابتكم من ادعى أنه دار فقد كذبا

٨٢:١

وإذ يعان أنه لم يلق جوابا لسؤاله عن الحقائق ـ مطلقا ـ ألا حرف جحد:

سألت عن الحقائق كل قوم فما ألفيت إلا حرف جحد

٢٣١:١

فعنده أن لا سبيل إلى المعرفة :

ليل بلا نور ، أجن بمهمه حبس الأدلة ليس فيه منار

٢٧٦:١

والناس فى تيه بلا أمر والله يفصل عنده الأمر (٣)

٢٧٧:١

وهو يقسم أنه لا هو يدرى ، ولا عالمه يدرى ـ مطلقا ـ

آليت ، ما أدرى ، ولا عالمى من كوكبى فى الحندس الداجى!

١٧٤:١

وقد قدر ألا تسير الأمور ولا تختبر ، فتلك طبيعتها :

الليل والإصباح والقيظ والـ إبراد والمنزل والمقبره

كم رام سبر الأمور من قبلنا فنادت القدرة : لن تسبره

٣٠١:١

(١) ذكرى أبى العلاء ـ ط أولى ص ٣٤٣ (٢) الشرى الحنظل (٣) الأمر العلم

والرأى عنده ماقال (فى الفصول ٢٧١) « والعقول ضالة فى ملك الله أشد ضلال »

* * *

ولكن أهذا هو العقل الذى بلغ لدى أبى العلاء من الشأن ما بلغ ومجده هذا التمجيد كله ... ؟! نعم : إنه ليس سلس القياد ، وهو غير عليم ، ينقاد حينا وينفر حينا :

وأشعر أن العقل يصحب تارة ويعفر أخرى وهو غير عليم
٢ : ٢٥٥

وأن الطبع يحارب فيفله ، كالشمس يسترها الغمام وظله :

يتحارب الطبع الذى مزجت به مهج الأنام وعقلهم فيفله
ويظل ينظر ، ما سناه بنافع كالشمس يسترها الغمام وظله
٢ : ١٦٠

وها هم أولاء الناس ، لم يغنهم طول إعمال عقولهم :

وقد أعمل الناس أفكارهم فلم يغنهم طول إعمالها
٢ : ٢١٣

إذن فهى سفسطة ، وليس ما أصلوه من أصول إلا وهما توهموه

كبار أناس مثل جلة سائم يربون أطفالا ، كما ارتضع البهم
توهم بعض الناس أمرا فأصلوا يقين أمور ، بات يتبعها الوهم
٢ : ٢١٩

* * *

هكذا قال المعرى فى مسألة المعرفة : فمن أى المفكرين نعده . . . ؟؟

هل نعده فى السفسطائيين ، لأنه نفى المعرفة ، وأقسم على نفيها : ونفاها فى الدينيات والدنيويات ، وفى الغيب والشهادة . . ؟ لا ، لن نعده فى السوفسطائيين ، لأن المتفلسف السوفسطائى ، رجل يطمئن إلى عجز العقل عن المعرفة ، ويلتزم ذلك ولا يحيد عنه ، فلا يبتغى الحقائق ولا يلتمس القياس ولا يجعل العقل

نبياً ، وصاحبنا ، على ما سمعنا ، قد أثبت إمكان الوصول إلى الحقيقة ، وعدد وسائطها ، وشاد يذكر العقل على نحو ما رأينا ، وأكثر فى ذلك كله إكثاراً واضحا . . .

فهل نعد المعرى لا أدريا ، شكاكا (١) . . لا أيضا ، لن نعده فى الريبيين . . لأن المتفلسف اللاادرى رجل ، لايرى طريقا للتثبت ولا سبيلا للاستيقان . ويلتزم ذلك فلا يستيقن حينا ما ، ويأتم بالعقل حينا ما ، كما فعل أبو العلاء وشهدنا ما قال فى ذلك . .

هلانعده عقليا لانه رفع من شأن العقل ، هذه الرفعة وجعله نبيا ، وابتغى علم الغيوب بالظن والتجربة ، ودفع الحيرة بالاستدلال ..و.. والخ مماقدمنا قريبا ؟ ؟ ولكن لا . أيضا . ان نعده فى العقليين . لأنهم ثابتون فى مكانهم . لا يثبون من طرف الى طرف . بين يوم وآخر . ولا يرون العـــالم مجموعة غير قابلة للتعليل ، حتى فى مرارة المر ، وحلاوة الحلو . وفى القبظ والايراد ، ولا يقرون سيطرة الشك ، واضطراب النواميس ، وحكم القدر بألا نسير الاشياء ولا تختير ، كما سمعنا أبا العلاء ينادى . . .

فماذا يكون أبو العلاء ، ان لم يكن سفسطائيا ، ولا شكاكا ، ولا مستيقنا ؟ ؟

هذا سؤال نرجىء الجواب عنه الآن . . نرجئه حتى نفرغ من الاجابة عن سؤال أسبق منه ، وهو . : —

(١) فى الهلال مجلد ١٥ ص ٢٠٨ : « ويقال فى الاجمال نه كان متردداً فى أحكامه على هذا الوجود من قبيل الفلاسفة الذين يقال لهم « لاأدرية » أى أنهم إذا سئلوا عن هذا الوجود اعترفوا أنهم لا يدرون مصيره ولايدركون كنهه ، ومما يدل على ذلك من أشعاره قوله :

لا كانت الدنيا فليس يسرنى أني خليفتها ولا محمودها

وجهلت امرى غير أنى سالك طرقا وختها عادها وثمودها

إلى ستة أبيات بعد هذا من تلك القطعة .. ولكننا نقول : ومما يدل على غير ذلك من أشعاره الكثير الذى قرأته قريبا ! !

هل لأبي العلاء آراء ثابتة ؟

أمن الممكن أن يكون أبو العلاء ، قد تنقل في مسألة المعرفة هذا التنقل ، ولكنه فيما وراء ذلك ، من أبحاث الفلسفة في شؤون العالم ، والانسان ، قد التزم آراء بعينها ، وثبت عليها حياته كلها أودهرا منها .؟ هذا ما نريد النظر فيه .

ولا نقصد من ذلك الى مشكلات الالهيات ومغيباتها، ولا معقدات الرياضيات وغوامضها ، وما الى ذلك من دقائق الفلسفة ، نلتمس فيها للمعري رأيا ثابتا ، . بل نؤثر أن ننظر في الفلسفة العملية ، من الشؤون الانسانية ، التي تمس حياة الرجل من حيث هو انسان مفكر ، لا بد أن يتأثر سلوكه بتفكيره ، كما هو الاصل في الفيلسوف دائما . . وعلى هذا سننظر فيما عرف وشاع من زهد أبي العلاء ، وتحريم الحيوان ، ومجافاة المرأة ، وكراهة النسل ، وما إلى ذلك . نتتبع فيه رأيه واحتجاجه ، ونرى مقدار ثباته على رأيه ، والتزامه له ، ومتى وكيف كان منه ذلك . . . ؟

زهد أبي العلاء

وننظر إلى الزهد والنسك بعامة ، فنسمع أبا العلاء يقول ناثرا « أنسك ، وفي مشيك فسك — امش هونا — فعل جائع ، وجد فترك ، لا مضطر . أكلَّ فأبرك ، وأعان الله رجلا كالعود الهرم ، لا حلب عنده ولا طلب » (١)

وأما في الشعر ، فهو المفضل عيش الفاقة على عيش الغنى ، وزي الراهب على زي الملك :

---

(١) الفصول والغايات ٢٢٣

وأفضل من عيش الغنى عيش فاقة ومن زى ملك رائق زى راهب

١: ٩٨

ويأمر بالارتياح إلى النسك وأصحابه :

الى النسك ارتح وأصحابه إذا فاتك القوم لم يرتح

١: ١٨٧

ويجعل النسك فوزا يأمر به

ففوزوا بنسك فى الحياة وثبتوا لاقدامكم فى الارض قبل انهيارها

١: ١٣٠

وعصا النسك عنده أحمى من رمح عامر العامرى ، وأشرف من قوس حاجب بن زرارة .

عصا النسك أحمى ثم من رمح عامر وأشرف عند الفخر من قوس حاجب

١: ٩٦

وهو يبين هذا النسك ، فيرى أن الحق منه ، ما كان عن يسر ، فى صحة ، واقتدار ، وذلك هو الدين عنده :

الدين هجر الفتى اللذات ، عن يسر فى صحة ، واقتدار منه ماعمرا

١: ٢٩٥

ويكون النسك والمرء شارخ ، أما التنسك بعد سن الأربعين فضرورة

تنسكت بعد الأربعين ضرورة ولم يبق إلا أن تقوم الصوارخ
فكيف ترجى أن تثاب ، وإنما يرى الناس فضل النسك والمرء شارخ

١: ١٨٨

ولا قيمة عند هذا الزاهد لكل ما تعطى وتملك من حطام

وتضن بالشىء القليل : وكل ما تعطى وتملك ما له مقدار

١: ٢٦٧

وأهون بالمال عنده :

والمال كالتابع ، أهون به ورب يسر فى قوام العدم

٢٧٧:٢

وعنده أن الغنى أصناف ثلاثة : فالغنى الأكبر هو الموت ، والغنى الأوسط القناعة ، وثالثهما غنى المال ، فاستغن عن المحظور بالمباح (١)

وهو يسوى بين الغنى والفقر

وإن الغنى والفقر فى مذهب النهى لسيان بل أغنى من الثروة العدم

سقط الزند٣ : ١٥

الفقر أروح فى الحياة من الغنى

والفقر أروح فى الحياة من الغنى والموت يجعل خائلا كمخول (٢)

٢٠١:٢

والفقير أقل الناس هموما وحسرة ، كفاقد الرشد :

أقل بنى الدنيا هموما وحسرة فقيد غنى للمال والرشد عادم

٢٢٦:٢

وقد احتقر أصحاب التنعم وعدهم نعاما :

كأن ذوى التنعم فى البرايا نعام ، راح يلتقط الهبيدا

٢١٨:١

وهتف المعرى هتفة ، أشبه بهتاف المسيح عليه السلام : من شاء التخلص من أذى الدنيا فليحط أثقاله ، وليتبعنى :

حياة ، وموت ، وانتظار قيامة ثلاث أفادتنا ألوف معان

فلا تمهر الدنيا المروءة ، إنها تفارق أهليها فراق لعان

ولا تطلباها من سنان وصارم ضراب بيوم أو بيوم طعان

---

(١) الفصول ص ٣٥٧ (٢) الخائل واحد الخول من النعم والعبيد والاماء وغيرهم ، والمخول الذى أعطى المال

وإن شئتما أن تخلصا من أذاتها   فحطا بها الأثقال واتبعانى

٢: ٣١٠

لو أن كل نفوس الناس رائية   كرأى نفسى، تناءت عن خزاياها
وعطلوا هذه الدنيا فما ولدوا   ولا اقتنوا، واستراحوا من رزاياها

٢: ٣٥٠

وحول بلباقته اللفظية أسماء الجواهر والمعادن إلى ألم وايذاء، فقال فى ذلك ناثرا:

الفضة تفض خاتم الديانة، والدر يدر المعصية، والنضار يترك الأوجه غير نضرات (١) كما يقول شاعرا:

وما نلت مالا قط إلا ومال بى   ولا درهما، إلا ودر بىَ الهم

(سقط)٢: ٥١

ما فضة الانسان إلا فَضة   والتبر تتبير، وجدك ظاهر
والدر دَر للهموم تُدره   إن الجواهر بالأذاة جواهر

١: ٢٦٥

وحصلت من ورق على ورَق   بيض. يشق متونها الحبر
فَضت نهاك، بفضة سبكت   ولقد قضى بتبارك التبر

١: ٢٧٨

وطالما هوّن أبو العلاء من أمر الملك

لكون خلك فى رمس أعز له   من أن يكون مليكا عاقد التاج
الملك يحتاج آلافا لتنصره   والميت ليس إلى خلق بمحتاج

١: ١٧٠

فعنده أن المليك، هو الفقير المحتاج

والمَلك فينا هو الفقير لما   يلزمه من معونة الخدم

٢: ٢٧٣

---

(١) الفصول والغايات ص ١١٧

وهو يحرض على ترك لذات الملوك لهم.

فاترك لأهل الملك لذاتهم فحسبنا الكمأة والاحبل(١)

١٦٢:١

وكره لنفسه أن يكون ملكا ، وجهر بذلك مرارا :

وما أختار ، أنى الملك ، يجبى إلى المال ، من مكس وخرج

١٧١:١

أسر أن كنت محمودا على خلق ولا أسر بأنى الملك محمود
لا كانت الدنيا ، فليس يسرنى أنى خليفتها ولا محمودها

٢٠٨:١

محمودنا الله ، والمسعود خائفه فعد عن ذكر محمود ومسعود

٢٣٠:١

فمن مبلغ عنى المآلك معشرا عليا ، ومحمودا ، وخانا وآلكا
فما أتمنى اننى كاجلكم ولكن أضاهى المقترين الصعالكا

١٣٢:٢

ويرى رفض السيادة على الناس ، ولو سودوا الشخص ، لأنهم أشرار :

لاخير فى الناس إن ألقوا سيادتهم إليك طوعا فخالفهم ، ولا تسد

٢٧٧:١

وينهى عن ولاية الشئون العامة ، إمارة أو إمامة ، أو خطابة :

أنهاك أن تلى الحكومة ، أو ترى حلف الخطابة أو إمام المسجد
وذر الامارة واتخاذك دِرة فى المصر تحسبها حسام المنجد
تلك الأمور كرهتها لأقارب وأصادق فابخل بنفسك أوجد

٢٣٤:١

ويرى أن العلا جملة يجلب الشر

والشر يجلبه العلاء ، وكم شكا نبأ على ، ما شكاه قنبر

٢٦٣:١

(١) الاحبل : اللوبياء

ويحذر من لصوص الأمانى ، وويلات النفس بها :

فاحذر لصوص الأمانى ، فهى سارقة ردت عن الدين قلب المرء منقوبا

١ : ٨٦

فويح النفس من أمل بعيد لأية غاية فى الأرض تجرى

١ : ٣٢٣

ويحرض على أعمال النسك ، ومظاهر الزهد ، من مشاركة الفرس الشعير إذا غلا البر ، والتحلية بالزبيب ، والائتدام بالزيت ، والشرب فى الفخار ، والاكتفاء بالساتر من الثياب ، وما إلى ذلك ، وترى هذا فى نثره إذ يقول :

« بلغة من المآكل ، وحاجب من السترات ، ومذهب للظمأ من الأمواه ، خير من مال غمر ، ونهى وأمر ، وعسل وخمر » فصول ٣٩١

كما تقرؤه فى شعره :

وإذا غلا البر النقى فشارك الـ فرس الكريم ، وساو طرفك تمجد
واجعل لنفسك من سليط ضيائها أدما ونزر حلاوة من عنجد(١)
وارسم بفخار شرابك ، لا ترد قدح اللجين ولا إناء العسجد
يكفيك صيفك من ثيابك ساتر وإذا شتوت فقطعة من برجد(٢)

١ : ٢٣٤

جشب كفاك مطاعما ، وعباءة أغنتك ، أن تتخير الأوبار

١ : ٢٧٠

وأنت إذا استعملت أكواب عسجد أسأت ، ويجزيك الإناء من الصفر

١ : ٣٠٨

قض الزمان ، بأجمال وتمشية للأمر ، إن وراء الروح مغولها
والورد يكفيك منه شربة حملت فى الركب إن منعتك الأرض جدولها

٢ : ١٧١

---

(١) العنجد الزبيب (٢) البرجد القطن

وإن طلب الرزق طالب فليطلبه فى الروض ، لا فى الوغى بأسنة ومناصل ، وليتشبه بالطير تغدو خماصا ، وتعد اليسار ملء الحواصل :

واطلب الرزق بالمرور من الشجـــراء ، لا من أسنة ومناصل
وتشبه بالطير تغدو خماصا وتعد اليسار ملء الحواصل

٢ : ٢١٦

ولا يتطلع المتنسك لجمال ، فهذا مفسد لنسكه :

إذا قيل إن الفتى ناسك ورام الجمال ، فلا نسك له

٢ : ١٨١

* * *

وحين يرشد إلى ذلك ، لا يترك أن يصف أمر نفسه فى النسك ، وأنه فعل مثل هذا ، الذى نصح به . فأبو العلاء فى قوله ،رجل لا يحب ولا يكره ؛ عاش من أيسر حل ، وتشبه بظل :

يا صاح ، ما أهوى ، وما أقلى ثقلى على ، فـــلا تزد ثقلى

٢ : ٢٠٦

عشت من أيسر حل وتشبهت بظـــل

٢ : ٢٠٦

يفرح باليسير ، ويقنع :

من مذهبى ألا أشد بفضة قدحى ، ولا أصغى لشرب معوج
لكن أقضى مدتى بتقنع يغنى ، وأفرح باليسير الأروج
هـذا ولست أود أنى قائم بالملك ، فى ثوبى أغر متوج

١ : ١٧٣

فيقنعه ستره ، ودفئه ، قد شرب بالخزف ، وتغنى فى الأمور ، فنابت قدماه عن المركب :

مقنعى من الزمان سترى ودفئى من لباس راق العيون وفرش

قد شربت المياه بالخزف الوخـ ش ، فأغنى عن محكمات بخرش(١)
وتغنيت فى الأمور ، فنابت قدماى عن ركوب دم وبرش
٢ : ٥٤

قوته غناه ، وطمره ساتره ، والتقى كنزه :
قوتى غناى ، وطمرى ساترى ، وتقى مولاى كنزى ، وورد الموت موعودى
٢ : ٢٣٠

لباسه ليس بالملون ، وقوته يأبى مثله الفصيح والألكن :
لباسى البرس ، فلا أخضر ولا خلوقى ، ولا أدكن(٢)
وقوتى الشىء أبى مثله فصيح هذا الخلق والألكن
٢ : ٢٨٧

قد ترك أعمال الدنيا ، لا يحفر بئرا ، ولا يعرش نخلا ، ولا ولا .. :
ما أنا بالواغل يوما على الشـ ـرب ولا مثلى بالوارش (٣)
لا أعرش الجفر ،ولا النخل فى الـ دنيا ، وما تبقى يد العارش
٢ : ٥٣

---

(١) الوخش : الردىء ، والخرش : المنقوش (٢) البرس : القطن وأشبيه به
(٣) الوارش : الداخل على الآكلين

تحريم الحيوان

وإذا نظرنا إلى النسك والزهد نظرة خاصة تفصيلية ، فسنجد أبا العلاء ، يكره الذبح والدم ، إذ يقول ناثرا : إذا غمس القوم أيديهم فى الدم ، فاغمس يدك فى ماء الغدير ـ فصول : ١٢٩

وعنده أن لا نسك للأسد مادامت تخافه النعم والوحش :

مادامت الوحش والأنعام خائفة فرسا فما صح أمر النسك للأسد

١ : ٢٢٧

ويكفيه أدام الزيت ، لم يرق له دم ، ولامس الروح بسبب جريه ألم :

يكفيك أدما سايط ، ماأريق له دم ولامس روحا إذ جرى ألم

٢ : ٢٢٩

فهو يعيب على الناس أكل أكباد الحيوان ، وطلبهم الممنع من هذه الأكباد :

ولم تكفكم أكباد شاء وجامل ووحش الى أن رمتمو كبد الضب

١ : ٩٥

ولو انصفوا لأعفوا لحوم السوام من الطبخ والإغلاء والإنضاج :

لو أنصفوا نزهوا سوامهمو عن غليان الكسور فى البرم(١)

٢ : ٢٧٢

وهم بأكلهم اللحوم يجعلون أجوافهم مقابر ، ويصونون دماءهم ويجعلون دماءها جبارا :

قد صير الإنسان فى أحشائه قبرا لغانية عن الاقبار

ماجاد من دمه المصون بقطرة وأجاد وصف دمائها بجبار

١ : ٣٤٢

(١) الكسور العظام

وهو ينهى عن إرهاف المدى للاعتباط ، نهيه عن سل السيف للأقران :

ولا ترهف مدى لعبيط نحض ولا تشهر على قرن صقيلا(١)

١٧٤:٢

ويعلنها رقة حس ، كره معها مظاهر العنف فى هذه الدنيا ، فنهى عن طلب الدنيا والعيش بالسيف :

ولا تطلباها من سنان وصارم بيوم ضراب ، أو بيوم طعان

٣١٠:٢

ونهى عن سل السيف مطلقا :

ولا تشيمن حساما كى تريق دما كفاك سيف لهذا الدهر ما غمدا

٢١٥:١

كفتك حوادث الأيام قتلا فلا تعرض لسيف أو لرمح

١٨٦:١

وكره الحديد ، حتى المرود يسبر به الجرح ، إذ اقترن عنده بالسيف ، فنهى عن استعماله :

فإن ترشدوا ، لاتخضبوا السيف من دم ولا تلزموا الأميال سبر الجرائح

١٨٤:١

وهكذا أمن الحيوان والطير ، كما أمن السمك إذ نهى عن أكله كغريض الذبائح :

فلا تأكلن ما أخرج الماء ، ظالما ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح

ولا تفجعن الطير ، وهى غوافل بما وضعت ، فالظلم شر القبائح

١٨٤:١

ولم يقف التحريم عند ذبحها ، بل رأى أبو العلاء ، أن الحيوان إنما يعمل لنفسه ، فما خلقت الخيل إلا لتركض فى حاجاتها :

---

(١) النحض : اللحم

لم تخلق الخيل، من غر ومصمتة   إلا ليركض في حاجاته الفرس

٢ : ٢١

وما جمعت إلا لأنفسها النحل، ولو علمت بمشتارها ما عسلت:

خف الله حتى في جنى النحل ذقته   فما جمعت إلا لأنفسها الدَّبْر(١)

١ : ٢٤٥

تق الله، حتى في جنى النحل شرته   فما جمعت إلا لأنفسها النحل

٢ : ١٤٨

فما أحرزته كي يكون لغيرها   ولا جمعته للندى والمنائح

١ : ١٨٤

لو تعلم النحل بمشتارها   لم ترها في جبل تعسل

٢ : ١٦٤

وهكذا نهى عما يعطى الحيوان، فنهى عن اللبن، إذ قال:

ولا بيض(٢) أمات أرادت صريحه   لأطفالها دون الغواني الصرائح

١ : ١٨٤

وكره مشاركة الجدى في لبن أمه:

لا أشرك الجدى في در يعيش به   ولا أروع بنات الوحش والضان

٢ : ٣١٦

لا أفجع الأم بالرضيع ولا   أشرك هذا الفرير في اللبن

٢ : ٣٢٤

كما نهى عن البيض:

فلا تأخذودائع ذات ريش   فمالك أيها الإنسان بضنه

٢ : ٢٩٥

---

(١) الدبر : جماعة النحل

(٢) ذكر أبو العلاء هذا البيت في مراسلته لداعي الدعاة، معجم الادباء — ١ — وقال بعده في الرسالة ما نصه المراد بالابيض اللبن، ومشهور ان الام اذا ذبح ولدها، وجدت عليه وجدا عظيما وتوفر على أصحاب امه ما كان يرضع من لبنها، وقد روى البيت في الرسالة هكذا:
وأبيض أمات أرادت صريحه

كما نهى عن عسل النحل :

ودع ضرب النحل الذى بكرت له   كواسب من أزهار نبت فوائح

١ : ١٨٤

قد غدت النحل إلى نورها   ويحك يا نحل لمن تكسبين ؟
يجىء مشتار بآلاته   فيلسب الأرى ولا تلسبين(١)
أتحسبين العمر ، علماً به ؟   لا ، بل تعيشين ولا تحسبين

٢ : ٣٣٢

ولم يقف الأمر عند الذبح ، ولا أخذ الثمار الحيوانية ، بل كره أبو العلاء كل ترويع للطير ، والحيوان ، ونهى عنه :

لا ترع الطائر يغذو بجه   يلتقط الحب لكى يمجه(٢)

١ : ١٦٨

وبكى الطائر يضربه فتى فيقتله ، أو تنصب له الحبالة ، فيقع فيها ، وهو المغنى الهاتف :

وابك على طائر ، رماه فتى   لاه ، فأوهى بفهره الكتفا
أو صادفته حبالة نصبت   فظل فيها ، كأنما كتفا
بكر يبغى المعاش مجتهدا   فقص عند الشروق أو نتفا
كأنه فى الحياة ، ما فرع الـ   غصن ، فغنى عليه أو هتفا

٢ : ٩٤

ووصف فى تفصيل مصرع حمامة فى اللزوميات ١ · ٢٥٢ .

وقال عن نفسه ، إنه لا تخافه الظبيات ، ولا الطير ، لأنها تشبهه فى الضعف :

فياطائر ائمنى وياظبى لاتخف   شذاى ، فمابينى وبينكما فرق

٢ : ١٠٣

وما الظبيات ، منى خائفات   وردن على الأصائل أو ربضنه

٢ : ٢٩٥

---

(١) لسب : كمنع لدغ   (٢) البج : بالضم الفرخ

لقد أمنتنى الأدماء، أضحت تراعى فى مراتعها طليا

٢ : ٣٦٣

وآلمه ضرب الجمل واعتده ظلما له، وطلب الرفق به :

ياضارب العود البطىء وظهره لا وزر يحمله كوزر الضارب
ارفق به فشهدت أنك ظالم فى ظالمين أباعد وأقارب

١ : ١١٦

كما رابه ضرب العير بغير ذنب، وعده جهلا، ووصف عناء هذا العير وما يلقاه :

لقد رابنى مغدى الفقير بجهله على العير ضربا ساء ما يتقلد
يحمله ما لا يطيق فان ونى أحال على ذى فترة يتجلد
يظل كزان، مفتر، غير محصن يقام عليه الحد شنعا فيجلد
تظاهر أبلاد الرزايا بظهره كشجيه فاعذر عاجزا يتبلد

١ : ١٩١

بل لم تقف شفقته عند المستأنس من الحيوان، إنما تجاوزته إلى الوحش والهوام فنهى عن طرد الوحش نفسه :

لاتطرد الوحش فما يلبث الـ ـمطرود فى الدنيا ولا الطارد

١ : ٢١٢

وكره قتل البرغوث ـ فصول ٣٥٦ ـ . وعد تسريحه إياه خيرا من درهم تعطيه لمحتاج . وسوى بينه وبين الملك فى حب الحياة :

تسريح كفى برغوثا ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا
لافرق بين الأسك الجون أطلقه وجون كندة أمسى يعقد التاجا
كلاهما يتوقى والحياة له حبيبة، ويروم العيش مهتاجا

١ : ١٦٨

هذا زهد أبى العلاء، وطعامه، وصلة ما بينه وبين الحيوان أعلاه وأدناه، وإحساسه لآلامه، فكيف نظر هو إلى الحياة . ؟

كراهته الحياة

لقد انصرفت نفس أبى العلاء عن الحياة (وبرم بها ناثرا ، وشاعرا فقال : إنى بالحياة لبرم (١) ... ما البقاء ، إلا طول شقاء . والحياة ظلمة ، ليس فيها إياة (٢)) ، وفى شعره يقول : إن البقاء رزء :

بقائى فى الدنيا على رزية ‏ وهل أنا إلا غابر مثل ذاهب
١ : ١٠٠

والدعاء له بطول البقاء ، إنما هو دعاء عليه :

دعا لى بالحياة أخو وداد ‏ رويدك ، إنما تدعو عليا
٢ : ٣٦٣

وحب الدنيا غرور :

وحب الأنفس الدنيا غرور ‏ أقام الناس فى هرج ومرج
١ : ١٧١

وحبها أس إمامة الجهل :

وحبك هذى الدار ، أس إمامة ‏ لجهلك ، والبادى على باطن ستر
١ : ٢٤٥

ومحبها رهين ذلة وصغار :

ومن هوى الدنيا الكذوب ، فإنه ‏ رهين ، بثوبى ذلة وصغار
١ : ٣١١

وتفنن فى التنفير من المعيشة والبقاء ، فالعيش علة ، والردى هو البرء منها

وما العيش إلا علة ، برؤها الردى ‏ فخلى سبيلى ، أنصرف لطيائى
١ : ١٤٦

والعيش حرب يضع الحمام أوزارها :

---

(١) الفصول ٢٥١ ‏ (٢) الفصول ٤٤٣ والاياة : ضوء الشمس

والعيش حرب ، لم يضع أوزارها إلا الحمام ، وكانا أوزار
١:٢٧٣

وهو في الحياة عان ، تفك المنية إساره :

ومن العجائب ، أننى عان بها أرجو المنية أن تفك إسارى
١:٣٤٠

وقد طال بالحياة ، وقوفه وراء الجسر ينتظر العبور :

طال وقوفى ، وراء جسر وإنما ينظر العبور
١:٢٦١

عبر الناس ، فوق جسر أمامى وتخلفت لا أريد عبورا
١:٣٠٢

والحياة صوم ، ويوم الممات عيد :

صمت حياتى ، إلى مماتى لعل يوم الحمام عيد
١:٢٠٥

أنا صائم طول الحياة ، وإنما فطرى الحمام ، ويوم ذاك أعيد
١:٢٠٨

طال صومى ، ولست أرفع سومى ووفودى على المنية فطر
١:٢٨٠

وكم تمنى فى الحياة حال الجماد ، لا يحس ، ولا يشتهى :

عز الذى أعنى الجماد ، فما ترى حجرا يغص بمأكل أو يشرق
متعريا ، فى صيفه وشتائه ما ريع قط لملبس يتخرق
متجلدا ، أو خلته متبلدا لا دمع فيه ، بفادح يترقرق
لا حس يؤلمه ، فيظهر جزعا إن راح يضرب مطاس أو مطارق (١)
لم يغد غدوة طائر متكسب وافاه يلقط ، أجدل أو زرق (٢)
٢:١٠٩

---

(١) المطس حجر عريض . اوخف البعير —

(٢) الزرق طائر —

أما الجماد فإني بت أغبطه   إذ ليس يعلم، إما زاد، أو محقا
لا يشعر العود بالنار التى أخذت   فيه، ولا الأصهب الدارى إذ سحقا

٢ : ١١٥

أجسما فيه هذى الروح، هلا   غبطت لفقدها الألم السِّلاما

٢ : ٢٤٩

تمنيت أنى من هضاب يلملم   إذا ما أتانى الرزء لم أتللم

٢ : ٢٥٢

وأبو العلاء لم يفته التفكير فى الانتحار، فهو يقول : لو أمنت التبعة، لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب، حتى أخلص من ضنك الحياة، ولكن أرهب غوائل السبيل - ف ٣٦٠ -

---

وذكر مثل هذا فى الغفران - ١٢٤ - فقال : قد كدت ألحق برهط العدم، من غير الأسف ولا الندم. ولكنما أرهب قدومى على الجبار. ولم أصلح نخلى بإبار.. ، ويذكر بعد ذلك رأى بعض الحكماء فى مخالفة هذا ؛ وحكمة الله فى حجز الرجل عن الموت، لئلا يرغب كل من احتدم غضبه فى الموت ؛ فيقول (١٢٤، ١٢٥)

ويعود الى فضل الموت بعد يسير — ص ١٢٧ — فيقول. وإن رمس الهالك لبيت الحق ؛ وإن طرق بالملم الاشق. على أنه يغنى الثاوى به بعد عدم، ويكفيه المؤنة مع القدم. وإن الجسد لمن شرخب، يبعد من سبى وسب. قال الضبى....

ولقد علمت بأن قصرى حفرة   ما بعدها خوف على ولا عدم
فأزور بيت الحق زورة ماكث   فعلام أحفل ما تقوض وانهدم

٢ : ٢٧٧

وما زالت العرب تسمى القبر بيتا . وإن كان المنتقل إليه ميتا ، قال الراجز :

اليوم يبنى لدويد بيته ... يارب بيت حسب بنيته
ومعصم ذى برة لويته ... لو كان للدهر بلى أبليته
أو كان قرنى واحدا كفيته

هذا من حديثه عن كره الحياة . . أما حديثه فى ذم الدنيا ، وبيان مساوئها فشىء لم أعرض له ، وهو يوزن فى الكثرة بما قيل فى كرهها ، ويتصل به

* * *

وإذا زهد أبو العلاء هذا الزهد ، وكره الحياة هذه الكراهية ، فكيف نظر إلى جماعات الناس فى صورها الصغرى أو الكبرى . . ؟ ؟ كيف نظر إلى الأسرة والمرأة . . ؟ ؟ وكيف نظر إلى الشعب والأمة . . ؟ ؟

الأسرة والمـــرأة

كره أبو العلاء الأسرة، فكره المرأة، ودعا إلى مجانبتها، فقال إياك والجنب، إلى زينب، ولا يغرينك النقاب، بما تحت الحقاب، فإن النفس موكلة بالضلال (١).. وبين فى شعره مساوئ المرأة كثيرا، فهى تارة عنده كالعقرب:

وإنما الخود فى مساربها كربة السم فى تسربهـا

١ : ١١٧.

وتارة حبل غى:

ألا إن النساء حبال غى بهن يضيع الشرف التليد

١ : ٢٠٧

والنساء كالأسود، يجب توقيهن:

توقوا سبيل الغانيات، فكلها كليث الشرى، والطيب فيها فرانق (٢)

٢ : ١٠٥

وهن عنده مثال ضعف العقل:

فى الحرب عقل رجال، إن هموقتلوا وفى الحجا عقل نسوان، لها مسك (٣)

٢ : ١٢٩

كما أنهن أذى وكيد:

ولولا أنهن أذى وكيد لما أصبحن فى كلل حبسنه

والنساء من جميع الأديان سواء فى ذلك:

وساو لديك أتراب النصارى وعينا من يهود ومسلمات

١ : ١٥٥

---

(١) الفصول ص١٥٩ (٢)الفرانق : الذى ينذر قدام الاسد
(٣) المسك : ما يمسك المـاء

وصاحبنا يرثى لمن يلد الاناث ، ويعدد متاعبهن :

وإن تعط الاناث فأى بؤس تبين فى وجوه مقسمات !
يردن بعولة ، ويردن حليا ويلقين الخطوب ملومات !
ولسن بدافعات يوم حرب ولا فى غارة متغشمات !

* * *

وقد يفقدن أزواجا كراما فيا للنسوة المتأيمات ! !
يلدن أعاديا ، ويكن عارا إذا أمسين فى المتهضمات ! !
يرعنك إن خدمن بغيرفن إذا رحن العشى مخدمات !

١ : ١٥٢

ودفنهن إحدى المكرمات ، والدفن أوفى لهن من الكلل والخدور ، وزيارة قبر الأوانس، خير من أن يقال عرائس :

ودفن والحوادث فاجعات لاحداهن إحدى المكرمات

١ : ١٢٥

ودفن الغانيات لهن أوفى من الكلل المنيعة والخدور

١ : ٣٥٢

إن الأوانس أن تزور قبورها خير لها من أن يقال عرائس

٢ : ٢٦

وإذ كان هذا شأنهن ، فبدء السعادة أن لم تكن خلقت امرأة :

بدء السعادة ، أن لم تخلق امرأة فهل تود جمادى أنها رجب

١ : ٦٥

وهو يذكر عن فتنتهن ، ماشاء الله أن يذكر ، فهن ظالمات ، فوارس فتنة، أعلام غى :

أولات الظلم ، جئن بشر ظلم وقد واجهننا متظلمات
فوارس فتنة ، أعلام غى لقينك بالأساور معلمات

١ : ١٥١

وسواس حليهن كوسوسة إبليس :

أبلست من وسواس حلى ، خلته إبليس ، وسوس فى صدور الناس
٢ : ٤٣

والمعصرات منهن عواصف صنيعها الاعصار :

والمعصرات من الخرادعواصف كالمعصرات صنيعها إعصار
١ : ٢٦٧

وعلى هذا الأساس جاءت آراؤه فى تعليمهن ، وعبادتهن ، واختلاطهن ، وحجابهن ، ونظام حياتهن ، حتى انتهى إلى أن خدر العروس المحببة ، أدهى وأفتك من عريسة الأسد : (١)

خدر العروس ، وإن كانت محببة أدهى وأفتك من عريسة الأسد
١ : ٢٢٧

وأرى العروس تحجبت فى خدرها كعرس الآساد فى الأخدار
١ : ٣٤٥

فقبح الزواج والزوجة :

تزوجتها وهى فيما تظن شمس الضحى ، بأواق ؛ ونَش (٢)
ينوش بها القلب أوطاره فليت مآربه لم تنش
عروسك أفعى فهب قربها وخف من سليلك فهو الحنش
٢ : ٥٤

فلو وفق المرء لم يتزوج والمرأة لم تزف :

لو وفق المرء لم يبهش إلى امرأة أو الغريرة لم تزفف إلى رجل(٣)
٢ : ١٩٢

بل نهى عن الزواج إن لم يملك المرء فراق الدنيا سريعا :

فان أنت لم تملك وشيك فراقها فعف ، ولا تنكح عوانا ولا بكرا
١ : ٢٨٣

---

(١) عريسة الاسد : مأواه (٢) النش : وزن عشرين درهما
(٣) بهش إليه — كمنع — ارتاح

وأمر بمقاومة الغريزة والكف عن الزواج :

ـ فازجر غريزتك المسيئة جاهدا   واستكف أن تتخير الاصهارا

٢٧٤ : ١

وجعل الخصاء خيرا من زواج الحرة فكيف بغيرها، وقسا فى ذلك لفظه :

خصاؤك خير من زواجك حرة   فكيف إذا أصبحت زوجا لمومس

وإن كتاب المهر ، فيما التمسته   نظير كتاب الشاعر المتلمس

فلا تشهدن فيه الشهود وألقه   إليهم ، وعد كالعائر المتشمس

٣٢ : ٢

النسل

ومهما يكن رأى أبى العلاء فى الزواج ، فإنه يرى الأمر الأحزم ، عدم النسل ، فيقول : أظعن عن الدنيا ، وما أترك فيها عِرْسا تأيّم ، ولا ولداً ييْتم ، وذلك الأمر الأحزم ؛ إنما يترك الإنسان ولده للشقاء ، إما ضعيفاً يظلم ، وإما قوياً اهتضم ، وكلا الرجلين لا يسلم — فصول ٢٧١ —

وهو يذكر هـذا الحزم فى شعره ، إذ يتسمح فى الزواج لمن خاف المأثم ، فينصح له بألا ينسل :

نصحتك لاتنكح ، فإن خفت مأثما فأعرس ، ولا تنسل ، فذلك أحزم

٢ : ٢٢٠

كل على مكروهه مبسل وحازم الأقوام لا ينسل

٢ : ١٦٤

وليست تلك نصيحته للإنسان فحسب ، بل إن هديت الورقاء لا تبنى وكرا لفراخها كالإنس :

إن كنت يا ورقاء مهدية فلاتبنى الوكر للأفراخ

١ : ١٩٠

والطيور كلها لو علمت علمنا ، وشعرت بما هو كائن لما اتخذت لأفراخها أوكارا :

هل تعلم الطير الغوادى علمنا ؟ أم لا يصح لمثلها أفكار

لو أنها شعرت بما هو كائن لم تتخذ لفراخها الأوكار

١ ــ ٢٧٥

وهو يأمر الطير بألا تفعل :

ياطائر ، اظعن من الدنيا ، ولا تكر للفرخ ، واعتش الأرزاق وابتكر

١ : ٣١٥

فالانسان بذلك أولى ولذا أمره بترك النسل :

دع النسل ، إن النسل عقباه ميتة ‌ ‌ ويهجر طيب الراح خوفا من السكر

١ : ٣٠٥

وعد النسل ذنبا لا إقالة له ؛ مرتود ؛

أرى النسـل ذنبا للفتى ، لا يقاله ‌ ‌ فلا تنكحن الدهر غير عقيم

٢ : ٢٥٦

وعده جناية على الأولاد ، مهما يكن مركزهم في الحياة :

على الولد يجني والد ، ولو انهم ‌ ‌ ولاة على أمصارهم خطباء

وزادك بعدا من بنيك وزادهم ‌ ‌ عليك حقودا ، أنهم نجباء

يرون أبا ، ألقاهمو في مؤرب ‌ ‌ من العقد ضلت حله الأرباء

١ : ٣١

ومن هنا كانت خير النساء العقيم :

إذا شئت يوما وصلة بقرينة ‌ ‌ فخير نساء العالمين عقيمها

٢ : ٢٢٧

والعقم خير للمرأة نفسها لو رشدت :

قد ساءها العقم ، لا ضمت ولا ولدت ‌ ‌ وذاك خير لها لو أعطيت رشدا

ما يأخذ الموت من نفس لمنفرد ‌ ‌ شيئا سواها ، إذا ما اغتال واحتشدا

١ : ٢١٥

وسبب ذلك عنده ـ على ما كرره ـ أن النسل فرش لهموم الفتى :

والنسل فرش لهموم الفتى ‌ ‌ والعقل مسلوب من الفارش (١)

٢ : ٥٣

والنسل أذى للأم :

أحاضنة الغـلام ، ذممت منه ‌ ‌ أذاك ، فأرضعي حنشا وضمي

فلو وفقت ، لم تسق جنينا ‌ ‌ ولم تضعي الوليد ، ولم تهمي

(١) الزرع ذو ثلاث ورقات

لمان . على أقاربك الأدانى قيامك عن خديج غير تم
٢ : ٢٦٥

وهو مع ذلك ، شقاء للوليد ، حتى لو أن الابن عق أباه ، لكافأه على جرمه ضده :

جنى أب ، دفع ابنا للردى غرضا إن عق ، فهو على جرم يكافيه
٢ : ٣٥٦

ويقول أبو العلاء ، إنه لو كان كلبا ، لما هان عليه أن يلقى جروه ، ما يلقى الناس فى الحياة :

لو انى كلب ، لاعترتنى حمية لجروى ، أن يلقى كما لقى الانس
٢ : ١٣

وما دامت النهاية الموت ، والنسل عبثا ، وتربية الأولاد لريب المنون غلط ، فاشتغل بما عساه ينفع ، لا بالنسل :

فدونك ، شغلا ليس هذا ، لعله يعود بنفع ، لا كشغلك بالنسل
أبوك جنى شرا عليك ، وإنما هو الضب إذ يسدى العقوق إلى الحسل
٢ : ١٨٤

وتفنن فى بيان هذه المعانى ، فتمنى عقم حواء ، ولم يعج تفكيره إلا لوم آدم ، وما إلى ذلك من بيان شر النسل وخطأ الناسلين.

الوحدة

وكذلك كان رايه فى المجتمع الكبير ، وهو الايمة ، رأى النفرة منه والهرب فقال : « واهرب إلى الفضاء الامليس ، من شر الجليس ؛ والله ثانى المنفردين »

— فصول ص ١٥٢ —

وأعلن فى الشعر ، أن شعاره « قاطع » ، إذا كان شعار تنوخ فى القديم « واصل » :

فر من هذه البرية فى الأر　　ض فما غير شرها لك حاصل
فشعارى «قاطع» وكان شعارا　　لتنوخ فى سالف الدهر «واصل»

٢١٦:٢

فالرأى عنده هجران الدنيا وساكنيها :

فالرأى هجرانك الدنيا ، وساكنها　　فأنت من جود هذى النفس منجود

١ — ٢٠١

وبالغ فى العزلة ، حتى طلبها حيا وميتا ، فتمنى ألا يشهد الحشر فى الناس :

فياليتنى لا أشهد الحشر فيهم　　إذا بعثوا شعثا رءوسهم غبرا

١ : ٢٨٤

وطلب أن يوسد بموضع لم يحفر فيه قبر لأحد ، وجعل هذا رتبة لقبره حسبها من رتبة :

إذا حان يومى فلأوسد بموضع　　من الأرض لم يحفر به أحد قبرا

١ : ٢٨٤

ياجدثى حسبك من رتبة　　أنك من أجداثهم معزلا

١٧٧:٢

وود لومات فى مهمه لتتهيأ له هذه العزلة :

وددت وفاتى فى مهمه　　به لامع ليس بالمعلم

أموت به واحدا مفردا … وأدفن فى الأرض لم تظلم
وأبعد عن قائل ، لا سلمت ، وآخر قال ألا يا اسلمى
أحاذر أن تجعلوا مضجعى … إلى كافر خان ، أو مسلم
إذا قال ضايقتنى فى المحل … قلت أساءوا ولم أعلم

٢ — ٢٧٣

وهو ينصح للورقاء بالعزلة ، إن هديت . ولا يقتصر على الانسان :

وانفردى فى بلد عازب … عنا ، وعيشى ذات بال رخى

١ — ١٩٠

وهكذا رأى وحدته أنسا ، واجتماعه بغيره وحشة :

إذا حضرت عندى الجماعة أوحشت … فما وحدتى إلا صحيفة إيناسى
طهارة مثلى فى التباعد عنكمو … وقربكمو يجنى همومى وأدناسى

٢ : ٣١

ونفى أن فى الوحدة وحشة ، وحبذها وذكر مزاياها عنده ، وعللها تعليلات مختلفة متنوعة دينية تارة ، ونظرية طورا ، ونفسية حينا ، وسنعرض لهذا فى موضعه .

نظرة فى هذه الآراء

هذه آراء لأبى العلاء . لعلها هى التى بها اشتهر ، وهى خطوط صورته عند الناس ، وإنها — كما قدمنا — لآراء فى الفلسفة العملية الانسانية ، متصلة بحياة الانسان أشد الاتصال وأقواه ، فهل ثبت أبو العلاء على هذه الآراء ؟

لننظر قبل الاجابة عن هذا السؤال إلى صورة الرجل من جانب آخر ، على الترتيب الذى اتبعناه فى غرض جانبها الأول . . . . فأما :

زهد أبي العلاء

فقد أرانا فيه ، أكثر مما يرينا ناسك فى شعاف جبل ، وأشهدنا أفضل ما وصفت به أوائل الرهبان ، ورءوس المتصوفة ، فانجل معه قليلا ، نقلب من دواوين أدبه صحفا أخرى . . . فهذا هو فى الغفران - ١٦٧ - ينتقص الزهد فيقول : « وما علمنا هذا (١) النسك موفيا ، ولا فى الأسباب الرافعة مرقيا ، والعالم بقدر ما هاملون ، أخطأهم ما هم آملون » . . وهو فى موضع آخر من هذه الرسالة - ١٨٢ - يعان يأسه من النسك إذ يقول : « ولا عندد عن الجبلة ، يريد المتنسك أن يصرف حبه عن العاجلة ، وليس يقدر على ذلك ، كما لا تقدر الظبية أن تصير لبؤة ، ولا الحصاة أن تتصور لؤلؤة ، يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين » . . . كما أنه فى شعره يعان أنه لا يجد النسك فيبغيه ، ويقول :

والنسك ، لا نسك موجود فنبغيه　　فعد عن فقهاء اللفظ مراق

٢ : ١٢٢

وما فى عالم الأرض زاهد ، ولا الرهبان أهل الصوامع :

لعمرك ، ما فى عالم الارض زاهد　　يقينا ، ولا الرهبان أهل الصوامع

٢ : ٨٢

ويتهم من يظهر الزهد ، فيرى بعض هذا ما سببه ضعف العقول ، وبعضه ما سببه بعد الهمم :

رأيت بنى الدهر فى غفلة　　وليست جهالتهم بالأمم

فنسك أناس لضعف العقول　　ونسك أناس لبعد الهمم

٢ : ٢٨٠

---

(١) فى طبعة أ. هندية ، التى تذكر صحفها هنا ، وردت الفقرة هكذا « وما علمنا أن النسك موفيا » وهو خطأ ظاهر ولا يتفق مع حرف السجع ، فاما أن يكون « هذا النسك » بدل « أن النسك » ، واما أن تزاد كان بعد النسك

وهذا هو زهد أولئك الذين طمعوا وعملوا فخذلوا ، وعز عليهم الحرمان ، فتركوا الدنيا ترفعا ؛ وهو يشير بهذا إلى معنى نفسى دقيق ؛ وقد يكون هذا النسك لبعد الهمم هو ماعناه بقوله :

دنياك دار قد اصطلحنا فيها على قلة الديانه
كأنها قينة خلوب ما عرفت قط بالصيانه
من لم ينلها أراك زهدا ومن لعير يصليانه (١)

٢ : ٢٩٥

ومثله :

خوى دن شرب،فاستجابوا إلى التقى فعيسهمو نحو الطواف خوادى

١ : ٢٢٤

والمعرى يحمل عصا النسك كما أسلفنا ، ويراها أحمى من رمح عامر ، وأشرف من قوس حاجب ، لكنه هو الذى يرى أن العلا حظ الاقوياء :

وقد علمت وغيرى عن مشاهدة أن العلا إلف قوم فى الوغى ليس (٢)

٢ : ٣٧

وأنه فاز الجسور ، وخاب من لم يجسر :

والعيش جسر نال من هو جاسر أو كاد فيه ، وخاب من لم يجسر

١ : ٣٣١

ولا ينال العلا ، إلا بأطراف القنا وكعوبه ، وضرب الهوادى بالحديد المسمم ، وماهو من ذلك بسبيل :

زممت المطايا للوجيف ولم تكن تنال المعالى بالمطى المزمم
ولكن بأطراف القنا وكعوبه وضرب الهوادى بالحديد المسمم
وجذب رداء ، يدرج النمل فوقه لتعميم رأس الهبرزى المعمم (٣)

٢ : ٢٥٣

---

(١) واحدة الصليان وهو نبت . (٢) الليس جمع أليس ، وهو الشجاع . (٣) الهبرزى الجميل

ومن يكتحل بالسهد فى طلب العلا ، فجائز أن يرى منهاجها :

ومن يكتحل بالسهد فى طلب العلا يجز أن يرى منهاجها باكتحاله

٢ : ١٨٧

وعنده أن السؤدد للشجاع والخطيب ، حتى فى الطير :

ومتى رزقت شجاعة وبلاغة أوطنت من ربع العلى بمشيد

فالطير سؤددها الرفيع وعزها قسما على خطبائها والصيد

١ — ٢٣٥

* * *

وإن ير النسك لا يكون إلا عن صحة ، واقتدار ، نسك شارخ ، لا من فات الاربعين ؛ فلكم بكى الشيخ شبابه آسفا فى حسرة ، وحن إليه فى لوعة ، كقوله :

ظمئت إلى ماء الشباب ، ولم يزل يغور على طول المدى ويغيض

تراه مع الاخوان ، لا تستطيعه حبيب ، متى يبعد فأنت بغيض

٢ : ٥٩

إذا ماخبت نار الشبيبة ، ساءنى ولو نص لى بين النجوم خباء

١ : ٢٩

إلى كثير من ذلك قوى ؛ وهو الحاض على اغتنام الشباب :

إن الشبيبة نار ، إن أردت بهـا أمراً ، فبادره ، إن الدهر مطفئها

١ : ٣٦

بل هو الحاض على الأنانية وإيثار النفس على غيرها :

إن ترد أن تخص حرا من النا س بخير ، فخص نفسك قبـله

٢ — ١٨٠

وإذا لم يكن لشىء عنده قيمة ، وقد هون من شأن المال، وسوى الفقر بالغنى ، أو فضله ، ورأى الفقير أقل هما ، فهو هو الذى قال : « نعم الشىء الثراء لمن كسي العارى ،وأطعم السغبان ـ ف ٢٨٢ـ .. وهو الذى يرى العز فى الثروة

والعيش فى الحبرة

والعز فى الثروة والعيش فى الحبرة، والحرية فى المحبرة

١ — ٣١١

وهو القائل، إن كل قلب جبل على حب الغنى :

تبغى الثراء فتعطاه وتحرمه وكل قلب على حب الغنى جبلا
لو أن عشقك للدنيا له شبح أبديته لملأت السهل والجبلا

٢ : ١٦٩

والمال عنده خدن النفس، والفقر موت :

والمال خدن النفس غير مدافع والفقر موت جاء بالإهمال
أو ماترى حكم النجوم مصورا بيت الحياة يليه بيت المال

٢ : ٢٠٥

والفقر موت يرجى النشور منه بالمال :

والفقر موت، غير أن حليفه يرجى له بتمول إنشار

١ : ٢٦٦

والناس يحترمون الغنى، ويعيبون الفقير :

أجلوا مكثرا، وتنصفوه وعابوا من أقل وأنبوه

٢ : ٣٤١.

يخدمون الغنى لا الفقير :

من يغن يخدمه قوم على طمع ولا يرون لمن أخطا الغنى خدما

٢ : ٢٤٨

إلى الغنى بنو حواء من طمع ولو دعاهم فقـير ماأجابوه

٢ : ٣٣٨

والمعرى نفسه يألم للزوم الفقر له، كأنه دعوة ناسك استجيبت :

وأن أخا نسك دعا لك بالذى ملكت، بضد من غناك دعا لى

ويعد نفسه صعلوكا ، إذ خرج من الدنيا بغير مال :

بلا مال عن الدنيا رحيلى   وصعلوكا خرجت بغير مال

٢ : ١٩٧

* * *

وإن هتف المعرى هتفة المسيح ، بمحبي التخاص من أذى الحياة، أن يحطوا أثقالهم ويتبعوه ، فهو يصارح بأن الحياة قائمة على الكد :

ولا بد فى دنياك من نصب لها   وهل وضع الأثقال دهرك عن شفر

أليس هزبر الغاب وهو مملك   على الوحش، يبغى الصيد بالناب والظفر

١ : ٨٠٣

وأهاب بالناس أن يعملوا للحياة عمل الباقين ؛ وكاد ينظم الحديث أو الاثر المعروف بنصه « إعمل لدنياك ... الخ » ، فقال :

اعمل لأخراك، شروى من يموت غدا   وادأب لدنياك، فعل الغابر الباقى

٢ : ١٢١

وان أدين الناس من يسعى ويحترف ،لايروم الرزق بالتوكل :

تقوى ، فيهدى إليك الزاد عن عرض   وتقترى الأرض جوالا فتقترف

تروم رزقا بأن سموك متكلا   وأدين الناس من يسعى ويحترف

٢ : ٨٩

وحينما أعجبه الترهب عقب على ذلك بأن السعى الحلال أطيب من الترهب :

ويعجبنى دأب الذين ترهبوا   سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

واطيب منهم مطعما فى حياته   سعاة حلال بين غاد ورائح

فما حبس النفس المسيح تعبدا   ولكن مشى فى الارض ، مشية سائح

٢ : ١٨٥

والرزق يهتف بالناس : أن اعملوا وكلوا ، وبالظبى رد ، وبالطائر التقط :

فالرزق يهتف ، ياأنس اعملوا وكلوا   يأيها الظبي رد ، يا طائر التقط
٢ : ٦٧

والمعرى يدعو إلى عدم الأنفة من الاحتراف والتكسب :

لا تأنفن من احترافك ، طالبا   حلا ، وعـــد مكاسب الفجار
١ : ٣٢٤

وهو يأمر بالجد ، قائلا : من سهر فى الليالى السود ، فأحر به أن يسود ، والله مالك السائد والمسودين - ف ٢٣٧ -

وأبو العلاء الذى يدين بالحظ ، ويكثر جد الإكثار من ذكر سلطانه الجائر ، يذكر أن الحظ كامن فى العمل :

ونال بنوها ماحبتهم جدودهم   على أن جد المرء فى الجد كامن
٢ : ٢٨١

* * *

ولئن حول المعرى بخلابته اللفظية واشتقاقه البديعى ، أسماء المعادن والجواهر إلى آلام وخسائر ، فإنه لهو الذى وصف الذهب فقال فى الغفران — ٢٠٣ و ٢٠٤ — «لله در الذهب من خليل ، فانه يفىء بظل ظليل ، وأن دفن لم يبال . ماهو كغيره بال ، أعطى نفيس المقدار ، فما هم شرفه بانحدار . والدر إذا كسر ذهبت قيمته ولم يحفظ أن تتحطم كريمته ، ورب ذهب فى سوار ، غبر زمانا غير متوار ، ثم جعل فى خلخال ، تختال بلبسه ذات الخال ، ثم نقل الى جام أو كاس ، وهو بحسنه كاس ، ماتغير لبشار النيران ، ولا غدر بوفى الجيران » الخ ماقال

وهو الذى يفرح لصاحبه بالدنانير فى الغفران - ١٩٥ - ويقول: «وسرتنى فيئة الدنانير إليه ، فتلك أعوان ، تشتبه منها الالوان ، ولها على الناس حقوق ، تبر أن خيف عقوق ..»

كما يقول فى وصف الدينار الذهبى ، من الفصول والغايات — ٢٨٨ و ٢٨٩ —

« ..اعتمد على ذى وجهين ما عرف قط بالمين ، لوكان رجلا ، لكان ناصح الجيب قلما خشى منه العيب . . . ومتى بعث فى المآرب تضاها ، والله بإذنه أمضاها . له منزل مادخله الهم ، ولا سكنه الخال ولا العم . . . تلقاه معلما بالتوحيد وليس بالعالم ولا البليد ، ولكن الله أنطق بعظمته كل جماد »

« « »

ولئن هون أبو العلاء من أمر الملك وكرهه ، ونهى عن ولاية الشؤون العامة، فلقد تمنى أن يكون الله قد صاغه ملكا، أو ملكا مؤيد المن، يريق مايشاء من دم هدرا :

لو شاء ربى لصاغنى ملكا أو ملكا ليس يعجز القدر
أيدمنى وقال : أى دم أرقت فهو الجبار والهدر

١ ــ ٢٨٢

وهو هو الذى يريد عليا المراتب :

أريد عليات المراتب ضلة وخرط قتاد الليل دون عليان

٢ : ٣٠٧

وهو الذى طلب العز ، ووالى المطايا التى تسعفه عليه :

متى ما تبت خوص المطايا مواليا بنا فى ابتغاء العز فهى موال

٢ : ١٨٩

ورهين المحابس ، قد أغرم بالفروسية غراماً ، إذ يرى العز فى رمح وترس ، أظهر منه فى قلم ودرج ، وحلفاه قتب وسرج :

وإن العز فى رمح وترس لأظهر منه فى قلم ودرج
فدع إلفيك من عرب وعجم إلى خافيك من فرس وسرج
سراجك فى الدجنة عين ضار وإلا فالكواكب خير سرج

١ : ١٧١

ويؤثر الموت بضربة يوم حرب على الموت فى الفراش :

لضربة فارس ، فى يوم حرب — تطير الروح منك مع الفراش
أخف عليك من سقم طويل — وموت بعد ذاك على الفراش

٢ : ٥٢

ويؤسفه أن يخرج من الدنيا ، لايبكيه مهند ولا جواد :

وإنك لا باك عليك مهند — ولامظهر حزنا، جواد مطهم

٢ : ٢٣١

وهو مع ذلك كله صاحب الكتاب المفرد فى الخيل عنوانه « خطب الخيل تكلم فيه على ألسنتها (١)

* * *

وان يحذر الشيخ ، من لصوص الأمانى ، فهو الذى تدب عقارب المنى على لسانه :

عقارب قاتلة من منى — على لسانى وضميرى دببن

٢ : ٢١٠

وله أمل فرقانه محكم :

لى أمل فرقانه محكم — أقرؤه غضا كما أنزلا

٢ : ١٧٧

وخانته الأمانى مرارا ، ثم مازال يتعلل :

وخانتنى الدنيا مرارا، وإنما — يجهز بالذم الغوانى الخوائن
أعلل بالآمال قلبا مضللا — كأنى لم أشعر بأنى حائن

٢ : ٢٨٠

وهو يرى أنه لو قيل : لم يبق من العمر إلا ساعة ، لأملت ماتعجز عنه سنة

---

(١) ياقوت معجم الادباء ١ : ١٨٩ ط هنديه

والأمل المبسوط ، قرن إزاء الليث لا يترك أن يلسنه
لو قيل لم يبق سوى ساعة أملت ما تعجز عنه سنه
٢ : ٣٠٢

وهو الذي اتسعت آماله حتى لم يف بها العمر ، وقد طال عمره:

حاجي، نظيم جمان ، والحياة معى سلك قصير فيأبى لجمعها القصر
أما المراد فجم لا يحيط به شرح، ولكن عمر المرء مختصر
١ : ٢٥٥

***

ولئن حض أبو العلاء على اعمال النسك ، فلقد حض على التنعم :

ألا فانعموا واحذروا فى الحياة ملما يسمى مزيل النعم
٢ : ٢٧٩

وهو القائل نثرا : واستقامة العالم لا تكون ولذة الدنيا منقطعة .. ف ٣٥٨-

وهو الذى قرر أن النفوس تنافر الجد ، وتهوى اللهو :

وديدن الجد ، مملوك تنافره كل النفوس ، وتهوى اللهو والددنا
٢ : ٢٩٠

وهو الذى يرى أن الفتى ، حين يكره الغوانى ، ويتقى المرض ، ويحتمى من الطعام ، يكون قد طوى الحياة ، وكاذب من يقول : انه منعم :

وإذا الفتى كره الغوانى ، واتقى مرضا يعود وضرّه مايطعم
فقد انطوت عنه الحياة ، وكاذب من قال عنه يبيت وهو منعم
٢ : ٢٣٦

وهو المدافع عن إصابة اللذات ، إذ يقول فى الغفران — ١٩٣ — وأما ماذكره من ميله فى مصر ، إلى بعض اللذات ، فهو يعرف الحديث ، أريحوا القلوب تنع الذاكرة ، وقال أجيحة بن الجلاح

صحوت عن الصبا ، واللهو غول ونفس المرء آونة ملول

***

وإذا كان أبو العلاء قد وصف نسكه هو نفسه ، فكم له مع ذلك من أسف على الدنيا ، منه ما في الفصول - ٣٦٦ - « لأكتمك ما أنت به عليم ، إن أسفي لطويل ، نفذ عمري ، وغيري المصيب » . وإنه ليعلن غير مرة - أن نفسه تنازعه الى الشهوات :

تنازعني إلى الشهوات نفسي فلا أنا منجح أبدا ولاهي
٢ : ٣٥٦

ويبدي إعجابه بالخفض والصحة :

أريد ليان العيش في دار شقوة وتأبى الليالي غير بخل وليان(١)
٢ : ٣٠٧

وهو يؤثر العافية ، وسلامة جسمه . و يعتبر السن خيرا من درة ، ويوصي بالمحافظة عليها :

سنك خير لك من درة زهراء تغشي أعين الناظرين
عجبت للضارب في غمرة لم يطع الناهين ولا الآمرين
يكسر باللؤلؤ من جهله خشبا عتت عن أنمل الكاسرين
٢ : ٣٣٣

وهو يجهر بان النفس لاتزال ذليلة لحب طعام، وحب شراب، ويوبخ هذه النفس:

تميلين عن نهج اليقين كأنما سرى بك أعمى أو عراك تعامى
فبعدا لنفس لاتزال ذليلة لحب شراب أو لحب طعام
٢ : ٢٥٧

* * *

وهو يقرر أنه جاهد لتحسين حاله في الحياة ، أو إحسان ذكره فيها :

قد ركبت الوجناء في جوشن الخمس أكرى في رحلها وهي تكر

---

(١) لواه بدينه ليا وليانا مطله

راجيا حسن حالة إن تخطئ ى ، فاعمالها ليحسن ذكر
١ ـ ٢٨٠

فهو كما يقول : قد قطع الحزن إلى السهل ابتغاء اليسار :

قطعنا إلى السهل الحزونة نبتغى يسارا ، فلم نلف اليسير ولا السهلا
٢ : ١٦٨

ونبل فلم يصب ، فمن له بالسهام الصائبات :

حابى كثير ، ومانبلى بصائبة وكيف لى فى مراميهن بالحابى
١ ـ ١٠٥

وأرسل دلوه يبغى الماء فخانه الرشاء :

أرسلت غربك تبغى الماء مجتهدا وما على الغرب لما خانك المرس
٢ ـ ٢٠

وبعد هذا الفشل والعجز مازال آملا راغبا . يقول . « أحب الدنيا ، وآلتها ليست فى، وقد يئست من بلوغها واليأس مريح، فإلام التشوف إلى الضلال ! » لو كنت مؤديا ـ كامل الأداة ـ لها ، لثقل على أمرها — ف ٣٥٨ —

كما يقول :

ولى أمل قد شبت وهو مصاحبى وساودنى (١) قبل السواد وما هما
٢ : ٢٤٠

وما أصرحه بعد ذلك . حين يفسر ما يمكن أن يكون منه زهدا، ويبين سببه النفسى فى شجاعة ، فيقول : إنه لا يؤثر خمود مصباحه ولكن خانه الزيت :

ولم أوثر لمصباحى خمودا ولكن خان موقده السليط
٢ ـ ٩٣

وأنه لم يطلق الدنيا بل هى التى طلقته :

فما طلقت هى ، بل طلقت ولست بأول من طلقا
٢ ـ ١١٧

«١» ساودنى لازم سوادى أى شخصى ، أوغالبنى

وماأعرض عن الذات ، إلا لأن أطايبها قد مالت عنه

ولم أعرض عن اللذات إلا   لأن خيارها عنى خنسته

٢ : ٢٩٩

ويكمل التفسير حين يقول : ان الناس أرخصوه ، فأغلى قدره بالصبر :

لما رأيت سجايا العصر ترخصنى   رددت قدرى إلى صبرى فأغلانى

١ : ١٠٥

ولعل هذا من النسك الذى ذكر هو قريبا أنه نسك لبعد الهمم . وهو فى الحقيقة متشبه راغب يريهم رياء وفى الفؤاد أوار :

إنى أرى خلقى فأريهموا   ريا وفى سر الفؤاد أوار

١ : ٢٧١

هذا زهد أبى العلاء بعامة ... وأما

تحريم الحيوان وثماره

فان يكن قد قرر ألانسك للاسد مع خوف الوحش والنعم من فرسه، فهو يقدر الواقع الطبيعى قدره ويقول : إنه لم تخلق للاسد أظفار إلا ابتغاء الظفر

وماجعلت لاسود العرين   اظافير الا ابتغاء الظفر

١ - ٣٥٧

ولولم يقدر خالق الليث فرسه   لمطعمه لم يعطه الناب والظفرا

١ : ٢٨٦

وهو يدافع عن افتراس الاسد بأنه على هذا جبل، وصير قوته مما يدمى :

وماذنب الضراغم حين صيغت   وصير قوتها مما تدمى

فقد جبلت على فرس وضرس   كما جبل الوقود على التنمى

٢ : ٢٦٤

وفى الفصول –١٠٤– يقول عن الذئب والله جعل رزقه فى البضيح فعلام يقتل إذا افترس فريرا منزربا»(١)

ويقول فى شعره :

ولولا حاجة فى للذئب تدعو   لصيد الوحش ما قنص الغزال

١ : ١١٨

وشيخنا المشفق على حيوان الارض هو الذى يخاف ويخوف من الحيوان

وخف حيوان هذى الأرض واحذر   مجىء النطح من روق وجم

٢ : ٢٦٤

ويشبه الناس بضارى الحيوان ، ويرى أن الشر قد تفرق فى حيوان الأرض:

والشر فى حيوان الارض مفترق   والإنس كالوحش من ضار ومنتقل

٢- ١٩١

ولئن كان يجزى الحيوان عن هذا الشر إحسانا فيكره ذبحه ويحرم على نفسه لبنه فانه لينسى ذلك فيذكر ايثاره اللبن على اللحم:

اعرض عن الثور مصبوغا أطايبه   بالزعفران إلى ثور من الاقط

٢ – ٦٧

ويفضل اللبن على الخمر ، ليغرى الناس بالاستعاضة عن الخمر:

أفضل من حمر السلاف ومن   كميتها ناصع من اللبن

٢ - ٣٢٢

كما أنه وقد بلغت به الرقة أن طلب اتخاذ حذائه من الخشب لا من الجلد حتى لا يذبح الحيوان ، قد نسى ذلك ، وأعلن أنه يشرب الماء فى الجلد :

شربت بالمسجد عن عزة   ومشربى من خزف أو أدم

٢ - ٧٧

---

(١) البضيح اللحم . والفرير ولد الضائنه . والمنزرب الذى دخل الزرب وهو حظيرة البهم

وأكثر من ذلك كله أن أبا العلاء وقد دفعته رقة القلب، إلى تحريم الذبح فكره السيوف والسكاكين والمدى، بل كره الحديد يتخذ منه المرود لسبر الجرح، فنهى عنه، هو أبو العلاء الذي يمجد السيف، ويتعشقه، ويحبذ القوة تحبيذا يضعه في صف الشعراء الفرسان — ان شئت — وقد أسلفنا قريبا بعض الشيء عن حبه الفروسية. وهو يشيد بالسيف في نثره فيقول في الفصول - ٢٩٧ و ٢٩٨ - وصفا للسيف: يهابه الفتى والكهل. وهو لأن يهاب أهل. يستنصر به أرباب العقول، وليس بصاحب معقول». وفي شعره يعد السيف الشر النافع كل حين:

وجدت الشر ينفع كل حين ومن نفع به حمل الحسام

٢:٢٣٢

والسيف أبلغ واعظ يتكلم:

كلم بسيفك قوما إن دعوتهمو من الكلوم فما يصغون للكلم

ذو النون، ان كان سيف الهند، أبلغ من ذي النون في الوعظ بل من نون والقلم

٢:٢٦١

وبالسيف يماط الأذى:

وكم من حسام قد أميط به الأذى ومارن سمر فيه رغم لمارن

٢:٣٠٩

وبالسيف تنال المنى:

منى، صل حرب نالها بالمناصل فواصل وقاطع بالرقاق الفواصل

٢:١٨٦

وأبو العلاء رام المآرب سفها ولم تكن تنال إلا بالسيف:

رمنا المآرب بالسفاه ولم تكن لتنال الا بانتضاء شفار

١:٣٤١

وفى بيض السيوف بياض عيش، هكذا قال الحكيم:

فوارس جيلكم تعطى مناها ... اذا دمى نواجذها الشكيم
وفى بيض السيوف بياض عيش ... بذلك فاعلموا، نطق الحكيم

٢:٣٣٣

والسيف أصل المكرمات:

فياهند، وان عن المكرما ... ت من لا يساور بالهندوانى

٢:٣٢٨

وهذا الرقيق القلب، يصف وقع السيف، ويراه إنما يفرج الضيق بوقوعه فى المضيق:

والسيف لا يفرج المضايق، أو ... يوقعه فى المضيق من صقله

٢-١٧٨

والعجب أن أبا العلاء صاحب الكلمات فى الأديان والعقائد يرى أن السيف هو الذى يثيب الملاحدة إلى الرشد:

تمادوا فى العتاب، ولم يتوبوا ... ولو سمعوا صليل السيف تابوا

١:٧٠

وهذا المتفلسف المفكر، يامر بقتال الملحدين:

إذا ما ألحدت أمم بجهل ... فقابلها بتوحيد السيوف

٢:٩٩

ولو أخذهم السيف ما ألحدوا، فإنما الإلحاد إلحاد السيف عن أن يأخذهم:

رويدك، لو لم يلحد السيف لم تكن ... لتحمل هام الملحدين هواد

١:٢٢٤

وفسدت الشام فى عهده كذلك بسبب إلحاد السيف فى رأيه:

إذا دنوت بشأم أو مررت به ... فتبكيه وراء الظهر أو حيدى

قدغير الدهر منه بعد مبتهج   وألحد السيف فيه بعد توحيد

٢٣١-١

ورابه من السيف هذا الالحاد، وأنه لم يفجع الملحدين برءوسهم منذ أزمان:

هل ألحد السيف أو قلت ديانته   أو كان صاحب توحيد، وإيمان

ورابني منه ترك الجاحدين سدى   لم يفجعوا برءوس منذ أزمان

٣١٦:٢

واذا ذكر القتل والقتال فى الحديث عن ناسك: المتحوب من الجرح والدم، المبتغى نعلا من خشب لئلا يسلخ الجلد، فاسمعه إذ يقرر ان العيش نهاب ويأمر بالمناهبة:

تناهبت العيش النفوس بغرة   فان كنت تسطيع النهاب فناهب

١٠٠-١

ويرد المطاعين وهم المطاعون:

رب الجواد قرى عينا لمأكله   فعد من رهط أقوام فراعينا

قل للمطاعيم تعصبهم ضيوفهمو   ان المطاعين يمسون المطاعينا

٣٩٣:٢

وفارسنا الحبيس لايكفيه أن يؤثر الموت فى الحرب على الموت فى الفرش بل هو يعد ميتة الميدان سعادة (١):

من السعد فى دنياك ان يهلك الفتى   بهيجاء، يغشى اهلها الطعن والضربا

فإن قبيحا بالمسود ضجعة   على فرشه يشكو الى البقر الكربا

١ : ٨٠

واذا كان له من الشعر مايعد به بين الشعراء الفرسان حينا فأن له من

١ — يلاحظ انه يقول فى الفصول — ٢٩٥ — أحسن ميتة الرجل أن يظهر به العلة ويستحضر له الطبيب فيمارس له الادوية وعند الله دواء السقيم ثم يقدم الناس فيحضره نفر منهم. العدو والصديق ثم يلفظ نفسه فيكون كالجذع القظيل المقطوع الخ

تحبيذ القوة مايجعله بين المعدودين من انصارها ، وهو الموصوف بالبرهمة ، والقول بعدم إفساد الصورة ، وبتحريم ذبح الحيوان . فاستمع لقوله فى تمجيد القوة :

ماأوصل السيف قطاعا لحامله — وأبلغ الذابل الموصوف بالخطل
قد وافياك بتاج الملك ، عن عرض — واثرياك بحلى الكاعب العطل
وأحرزاك بمقدار الى أمد — وأنجزا لك وعد الكذب المطل
والسيف إن قال أبدى نبأة عجبا — فى وزن حرفين ،لم يكثر ولم يطل
سلمان تفهم عنه فارسيته — فدع سليمان والمغنى ردى البطل

٢ : ١٩١

ويذكر التقنع عن عظائم لا تبلغ بالوناء فيعد هذه العظائم فى إطالة وحماس:

ويكفيك التقنع من قريب — عظائم ليس تبلغ بالتونى
صرير الرمح فى زرد منيع — ووقع المشرفى على المجن
وحمل مهند يسطو بعير — وقور ، ليس بالاشر المرن
ولاشلال عانات خماض — ولكن خيل جيش مرجحن
يرى عذم الأوابد غير حل — ويعذم هامة البطل الرفن (١)
وما ينفك محتملا ذبابا — إلى التغريد فى الخصر المعن
تذوب حذاره زرق الاعادى — ويسخى بالحياة حليف ضن
وينفث فى فم الحيات سماً — ويملأ ذلة أنف المصن (٢)

٣١٨:٢

وهو ينفر من التغاضى على التثريب ويحتكم إلى القوة :

وخير للفؤاد من التغاضى — على التثريب نصل يثربى

---

(١) العذم العض والاكل بجفاء ، والرفن المتبختر فى بطر
(٢) المصن الممتلىء غضباً

فإن يلحق بك البكرى غدرا　　فلم يتعر منـه التغلبى

٣٦١:٢

ويحبذ نفع السيف وحده :

ماأنفع السيف لمن شامه　　أخضر ماروضته زاوية
ذبابه ، ان يشد يحدث له　　جديوازى لعب الغاوية (١)
يقتسر الدنيـــا لأخلاقه　　محتلباً أخلافها الضـاوية
ألوى بنات الارض وهو الذى　　لم يلو بل ألوت به اللاوية

٣٦٥:٢

والمعرى فى اعجابه العنيف المسرف بالقوة قد قامر بحياته فى سبيل هذا وقال : —

وان أنا قلت لاتحمل جرازاً　　فهز اخاالسفاسق واضربنى
فنصل السيف وهو اللج يرمى　　غريقا فوق سيف مرفئن (٢)
وضاحيه يزيل غضون وجه　　ويبسط من ودادالمكبئن (٣)
فما حملت يداه به خئونا　　ولا نبراته نبرات ون (٤)

٣١٩ : ٢

فياليت شعر أبى العلاء أكان هذا آخر ما قال . فهو عنده القول الفصل فى الشهادة للقوة والسيف أم تراه عادفنقض ذلك وبه استحق بالنهى عن حمل السيف ان يهز أخو السفاسق ليضرب به ؟؟ ما احسبه الا قد خسر فى هذا التحدى حياته اذ طالما قال لاتحمل سيفا ولا تمسه ، وماأخال تلك النغمة القـوية هى آخر نغماته.

---

(١) الغاوية هنا الذى يألف الرياض من الذباب　　(٢) المرفئن — الساكن
(٣) المكبئن — المنقبض　　(٤) الون — آلة لهو

وفى كل حال فهذا التحدى الثائر . المسرف فى الدعوة الى السيف، صادر من ذلك الذى حرم الحيوان شطرا من عمره، واحتج لذلك مجادلا فى الرسائل المتبادلة بينه وبين أحد ابناء عصره: هبة الله بن موسى بن ابى عمران، داعى الدعاة بمصر، فكانت حجته فى شعره هى حجته فى نثره: متدافعة متقابلة

فقد احتج فى شعره لما رأى من تحريم الحيوان - بما اسلفنا - من امر صحته ونظام طعامه وقال :

أفدت لهجران المطاعم صحة فما لى من داء يخاف ولا حبن(١)

٣٢٤:٢

ولعله لهذا قد تمنى ترك الاكل جميعا فقال :

من لى بترك الطعام أجمع ان الاكل ساق الورى الى الغبن

٣٢٤:٢

كأن هذا التحريم الصحى حجته ، ثم هو فى غير هذين الموضعين يذكر تحريم الحيوان وشفقته عليه على نحو ما قدمنا.. وكذلك نراه فى حجاجه النثرى عن هذا التحريم وهى المسألة التى كانت مدار مراسلاته مع داعى الدعاة فهو تارة . يظن اقتناعه بالنبات يثبت له جميل العاقبة وحينا يقول ان اللحوم لا توصل اليها إلا بايلام حيوان ويتحدث عن هذا الالم وحس الحيوان به وآونة يقول ان الذى حثه على ترك أكل الحيوان قلة ماله

فهل ابو العلاء الذى سمعت منه ما سمعت هو أرفق الناس بالحيوان وارحمهم به وله فى ترك أكله فكرة تعبر عن مذهب فلسفى !! .. سنرى .. وأما

---

(١) الحبن : مايعترى الحبة فيقيح ويرم

كراهته الحيـاة

فليس أبو العلاء فيها أثبت رأيا ، فهذا البرم بالحياة الذى يرى البقاء شقاء يقول نائرآ فى الفصول - ٤٤ — :

أنا تحت حب الدنيا محب - بارك - ، أثقلنى فأنا مكب، كما يقول - ٣٤٨ - أزويت عنى الدنيا فأسفت ؛ وأشفقت لذلك وخفت ، وأحببت لها وشنفت - أبغضت - ، ولو أنصفت لعفت مااستوبله ، فما نشفت- أصبت -، .. إلى غير ذلك ، والذى يعدالبقاء طول شقاء يقول : الموت ربذ - سريع - فأين أنتبذ ، ليس منه وزر ولا حام - ف ٢٤٢

والذى عد حب الدنيا غرورا . وأسا لأمامة الجهل وو . . الخ هو الذى عد حبها طبعا ، قد منى منه بقرن غلاب :

وحب دنياك طبع فى المقيم بها   فقد منيت بقرن منه غلاب

١٠٥:١

وحبها غريزة فينا فلا يترك ولو جر المهالك :

ولو لم يكن فينا هواها غريزة   لـكان إذا جر المهالك يترك

٢ — ١٢٦

وحبها كحب ليلى ولبنى ، وكل ابن ملوح ، وابن ذريح :

أما وفؤاد بالغـــرام قريح   ودمع ، بأنواع الهموم سريح

لقد غرت الدنيا بنيها بمذقها   وان سمحوا من ودها بصريح

أليلى ؟ وكل اصبح ابن ملوح   ولبنى ، وما فينا سوى ابن ذريح

١ — ١٨٥

---

(١)معجم الادباء لياقوت ١ : ٢٠٠ واللزوميات ٢ : ٣٢٤ — (٢) المرجع السابق (٣)المرجع نفسه (٤) ياقوت ١ : ١٠٢ (٥) عبارة ذكرى أبى العلاء للدكتور طه حسين بك

وكلنا دنف بحبها فوق مايجب :

نحن البرية ، أمسى كلنا دنفا   بحب دنياه ، حبا فوق مايجب

١ — ٦٦

وهي المنتهى ، وهي المشتهى ، ومع السها منها أماني :

أبى القلب ، الا أم دفر كما أبى   سوى أم عمرو ، موجع القلب هائم

هي المنتهى ، والمشتهى ، ومع السها   أماني منها ، دونهن العظائم

٢ — ٢٢٥

وكأن عشقها وصية المهيمن :

كأن المهيمن أوصى النفو   س بعشق الحياة وأحبابها

١ — ١١٩

والنفس تدمع عند فراق الدنيا ، إذ ليست خلة أعز منها :

والنفس آلفة الحياة ، فدمعها   يجرى لذكر فراقها منهله

ما خلة بأعز منها ، والفتى   يبكى إذا ركب الصريمة خله

٢ — ١٦٠

حتى الراهب المسجون لفرط العبادة مدله بحبها :

الراهب المسجون ، فرط عبادة   من حب دنياه الكذوب مدله

أعرفتمو أصحابكم بحقيقة   أم كلكم عنهم غبي أبله

٢ — ٣٤٤

معشوقة مشقية ، والعشق أبدا شقاء :

ودنيانا التي عشقت ، وأشقت   كذاك العشق ، معروفا ، شقاء

سألناها البقاء على أذاها   فقالت عنكمو حظر البقاء

١ — ٣٨

ولا ينسى أبو العلاء أن يكذب المتحدثين بكرهها ، بعد ما يقرر تولهه بها ، وعدم استطاعة نسيانها ، حتى حين يقول غير ذلك :

نفسى بها ، ونفوس القوم ملهجة ونحن نخبر أنا لا نباليها
أمرتنى بسلو ، عن خوادعها فانظر، هل أنت مع السالين ساليها!
ولا ترى الدهر إلا من يهيم بها طبعا ، ولكنه باللفظ قاليها

٢ — ٣٤٦ ، ٤٧

ولن يخرج هو من الدهر ومن فيه !!

* * *

وأبو العلاء يحدثنا بأصرح من ذلك . عن حبه هو لها خاصة ، بعد ماقرر من تأصل ذلك فى الناس ، وغريزيته ، فيقول :

أحبك أيها الدنيا كغيرى وأشرانى قلاك ، ولست أشرى
ونهوى العيش فيك مع الرزايا وما طولت من خمس وعشر

١-٣٢٣،٢٤

ورغم خداعها ، قد أشرب حبها لا ينفيه عن جسده إلا الثرى يتشربه :

دنياى، لا كنت ، من أم مخادعة كم ميسم لك فى وجهى وأقرابى(١)
أشربت حبك لا ينفيه عن جسدى
سوى ثرى ، لدماء الأنس شراب

١-١٠٦

وأحبها حبا خالصا كحب غيره ، وقد صادته رغم الحذر :

وحبي للدنيا ، كحبك ، خالص وفى عنقينا من هوى ، جعلت ربقا
حذرنا ، فصادتنا الخلوب ، كغيرنا وأى غراب ما أجادت له طبقا !؟

٢-١١٣

وهى ربة دل ، لم يتسل عنها ، وإن ظن التسلى:

أيها الدنيا لحا ك الله، من ربة دل

---

(٢) ج قرب أى الخاصرة

ما تسلى خلدى عنـــ ـك وإن ظن التسلى

٢ـ٢٠٧

إلى كثير كهذا .

***

وهذا الذى انتظر أن تفك المنية إساره ، وأن يعبر الجسر إلى الأخرى ، وو ... هو الذى يقول « .. قلتنى دنياى فما قليتها ، قد كرهت المنية وأبيتها » ـ ف ٢٣٣ ـ كما يقول فى شعره .

أهاب منيتى ، وأحب سترى وخوف الشيخ من هرم وهتر

١ـ٣٢٠

ويضاعف همه ، أن يموت قبل تحقق أمنيته .

تضاعف همى إن أتتنى منيتى ولم تقض حاجى بالمطايا الرواقص

وما عالمى إن عشت فيه بزائد ولا هو إن ألقيت منه بناقص

٢ـ٥٧

وهذا الذى سمعناه وقد فكر فى الانتحار بالأضراب عن الطعام والشراب ، هو الذى ذكر الموت ، وألا مهرب له منه ، فقال: ولو شاء الله لجعل عباده مخلدين ـ ف ٢٤٢ ـ بل كاد يتمنى الخلود فى قوله :

كم أراد الخلد قوم فرأوا مسلكا إن يلتمس لا يستطع

٢ـ٨٥

وقال إن طول العيش يحمد على ضد طول القول :

والعيش ضد القول يحمد طوله ويذم هاذى القوم فى الاكثار

١ـ٣٤٢

وهو فى كل حال قد أكثر من ذكر أنه جاء الحياة كارها، ويفارقها كارها والله شاهد على ذلك .

خرجت إلى ذى الدار كرها ، ورحلتى إلى غيرها بالرغم ، والله شاهد
١–١٩٢
جئنا على كره ، ونرحل رُغَّما ولعلنا ما بين ذلك نجبرُ
١–٢٦٢
وما يترك الانسان دنياهَ راضيا بعز ؛ ولكن مستضا ما على قسر
١–٣٠٤
وردت إلى دار المصائب مجبرا وأصبحت فيها ليس يعجبنى النقل
٢–١٤٩
وكل من حل بها يكره الرحـ لة عنها ، وهى تستوبل
٢–١٦٤

وأبو العلاء يعد أشد خطب يتقى هو فراق الروح للجسد :

أشـد خطب يتقى فراق روح لجسـد
١ – ٢٣٩

أفيلقب أبو العلاء بعد ذلك « كاره الحياة »، ويقال : أن أبا العلاء كان للدنيا قاليا !!

وأما . . .

المـــرأة

فإن يكن المعرى ، قد دعا إلى اجتنابها ، فأنه لهو الذى يهنىء بالزفاف فيقول فى الزوجة :

خير أيدى الزمان عند بنى الد　　نيا ، أتت فى أوان خير الشهور

سقط ١ : ٧١

ويهنىء بالزفاف مرة أخرى فيقول فى وصف ساعة الأعراس

لم يزل الليل مقيما يرى　　مالا رأت عاد ولا جرهمُ
فى ساعة هشت إلى مثلها　　مكة ، وارتاحت لها زمزم

سقط ١:٢٣٩

وأن تظن أن ذلك من شعره قبل التفلسف ؛ فإنه فى اللزوميات ليعد النعم ، ومن بينها الإعراس بالفتاة ، قد عده نعمة بين المطعم والمشرب والملبس وسائر ملاذ الحياة :

طاعم أنت ، وارد عذب ماء　　معرس بالفتاة ، حاذٍ وكاسى
فاتق الله ، لا تؤمّن ما يقبـ　　ـح من ريبة، ومن شرب كاس

٢ — ٤٧

ويصف الرجل الممتع فى الفصول ـ ٤٢٩ ـ فيقول : يكون الرجل كاسيا

بمثل ريش الأخيل، وشبابه كروضة الوسمى ، وعيشه أوسع من الموماة ، وعرسه الصالحة الحسناء . . الخ. كما يصف بعد ذلك الرجل غير الممتع فيقول: ويلبس أخلاق الثياب كلباس الرأل ، ويفارق العرس ، أما أن يهلك ، وإما أن تختار سواه ، وتكون روضة شبابه هشيما .. الخ - ف ٤٣٠ - فالعرس الصالحة الحسناء عنده متعة ، وفراقها شقوة !!

*
* *

وهذا الذى جعل النساء أسودا تتقى ، هو الذى جعلهن قوارير يرفق بها :

زجاج ، إن رفقت به ، وإلا رأيت ضروبه متقصمات

١ — ١٥٥

والذى جعل المرأة كالعقرب ، هو الذى أجلها ، وعدها مكان الثريا فى المكارم ، ومكان الشمس ، إذ يقول :

إذا ما «غضوب» غاضبت كل ريبة وكانت « لميس » لاتقر على اللمس

فقد حازتا فضل الحياة ، وعدتا مكان الثريا فى المكارم والشمس

٢ — ٣٠

والذى جعلهن أذى وكيدا ، وحبل غى وما إلى ذلك ، هو الذى يجعلهن الجنات :

جنان ، ورضوان الذى هو مالك لها ، عنك ينفى مالكا وجهنما

حلمن ، وجن الحلى من فرط لهجة فوسوس من تحت الثياب وهينما

٢ — ٢٤٣

والذى رأى بدء السعادة أن لم تخلق امرأة ، جعل الزوجة جنة هذه الدنيا :

وجنتك الأولى عروسك وافقت رضاك فإن أجنتك فاجن ثمارها

١ — ٢٩٠

× وهو الذى جعل المرأة الحصان نعمة يحسد بين القوم زوجها :

إذا كانت لك امرأة حصان فأنت محسد بين الفريق

فإن جمعت إلى الإحصان عقلا فبورك مثمر الغصن الوريق

٢ — ١٢٣

والذى قبح الزواج والزوجة ، ونهى عن الزواج . هو الذى رأى أن النساء لا يصونهن سوى أزواجهن أحد :

وما حفظ الخريدة مثل بعل تكون به من المتحرمات

يحوط ذمارها من كل خطب ويمنعها مصاعب مقرمات(١)

١ — ١٥٥

ماصانكن سوى الأزواج من أحد وأول الدهر أعييتن هماما

٢ : ٢٤٨

٧ وهو الذى يأمر الرجل بأن يطلب لبنته زوجا ، ويخوف ابنه من الزواج والنسل

واطلب لبنتك زوجا كى يراعيها وخوف ابنك من نسل وتزويج

١ — ١٧١

وهو يناقض نفسه ، لا فى قولين بعيد وقريب ، بل فى شطرى هذا البيت ويفسد معناهما فإنه لو كلف كل رجل أن يخوف ابنه من الزواج لما وجد رجل لابنته زوجا ، كى يراعيها كما طلب هو !!!

على أنه وراء ذلك كله قد عاد فأباح الزواج ، وقال ، تزوج ان أردت

---

(١) المقرم الفحل المكرم

واختار للمتزوج فتاة صدق مستترة كمضمر نعم :

تزوج إن أردت فتاة صدق كمضمر نعم دام على الضمير
إذا اطلع الأوانس لم تطلّع إلى عرس تمر ولا أمير

١ — ٣٢٥

وأقر أنها تكون حياطة لزوجها ، واعترف بفائدة الزواج ، والتعاون فيه على الحياة ، إذ قال :

قد حاطت الزوج حرة سألت مليكها العون فى حياطتها
غدت ببرس إلى مرادنها أو خيط غزل إلى خياطتها
أماطت السوء عن ضمائرها فلاقت الخير فى أماطتها

١ — ١٥٧

وأبو العلاء لم ينس الخيرات من النساء ، ولم ييأس من خيرهن . . لقد وصف هؤلاء الخيرات ، الغازلات غير العازفات ولا المغنيات ولا شاربات الخمور ، ولم تخل الدنيا فى رأيه منهن وهو يحييهن ويحي رجالهن الذين يمضى عمرهم فى الجد فيقول :

رعى الله قوما ، مضى دهرهم وما فيهمو أحد يهزل
تضاهى العناكب نسوانهم فتنسج للنفع أو تغزل
وما عرفت مزهرا فى الحيا ة ولا الدن يفتح أو يبزل
جهلن الغناء وصوتا يقا ل غناه دحمان أو زلزل

٢ : ١٧٦

وهو يدعو الله بالمغفرة لهؤلاء النساء المجاهدات العاملات ويقول :

والله يغفر فى الحساب لنسوة جاهدن إذ فقد الحيا بمغازل

فكسبن منها مايقوم بأنفس والصبر يبدن فى الزمان الهازل
أتصدقت بالخيط، ثم هوت إلى الـحمراء فاعتصمت بخيط الغازل
وأنالت المسكين أكلة جائع فغدت كرضوى فى المقام الآزل(١)
٢ : ٢٠٣

وأبو العلاء، يقدر للمرأة فضلها الكبير، بوظيفتها الأنسانية الكريمة، وظيفة الأمومة، التى تسدى بها الفضل لكل مولود، ويراها أولى بالأكرام حين يعد فضل الوالدين :

العيش ماض، فأكرم والديك به والأم أولى بأكرام واحسان
وحسبها الحمل والارضاع تدمنه أمران بالفضل نالا كل أنسان
٢ – ٣١٤

كما يقول :

وأعط أباك النصف حيا وميتا وفضل عليه من كرامتها الأما
٢ – ٢٤٠

وبين فضلها فى النسل :

أقلك خفا، إذ أقلتك مثقلا وأرضعت الحولين، واحتملت تما
وألقتك عن جهد، وألقاك لذة وضمت وشمت، مثلما ضم أو شما
٢ – ٢٤٠

وأبو العلاء آمل خير، فى المرأة، حين يكتب الكتب الخاصة فى وعظها، ككتاب تاج الحرة فى عظات النساء نحو أربعمائة كراسة

* * *

ولا ندع الحديث عن المرأة، وآراء أبى العلاء فيها قبل أن ننظر فى أمره بزجر الغريزة المسيئة ؛ والكف عن الزواج فأنه ليقول فى الغفران ماقدمناه، من أنه لاسبيل للتغلب على الفطرة، ولا معدى عن الجبلة، ويكمل ذلك بما

(١) الأزل الضيق

نصه : وقول القائل ، اللهم اجعل وصعى ـ طائر أصغر من العصفور ـ بازيا، يكون للسفه موازيا

لقد علمت ، ولا أنهاك عن خلق ألا يكون أمرؤ آلا كما خلقا(١)

وصاحبنا قد أحس سلطان الغريزة على الانسان فى أشياء كثيرة ، وله الكثير الجم من التشهى ، لانستوفيه هنا ، ولا يسمح المقام به ، وحسبنا من ذلك كلمة متحرقة فى الفصول ـ ٣١٦ ـ إذ يقول : أنما أنا كرجل ،بلى بالصدى ـ العطش ـ لايجد وردا ولا موردا ، فهو ظمآن أبدا ؛ ان ورد عزوفا ـ بئر يؤخذ منها باليد ـ وجده مضفوفا ـ كثر وارده ـ ، وان صادف نزوعا ـ بئر ينتزع منها الماء ـ أعوزته الآلة والمعين ، فبينا هو كذلك ، هجم على رجل ينزع بغرب ، فشكا إليه فرط الكرب ، فقال : ريك ان شاء الله قريب ، فأعنىّ على انتزاع المُرْوية ، فلما كان الغرب بحيث يريان ، غدرت الوذَم ـ عرى الدلو أو السيور ـ وخان العِناج ـ الحبل يشد على خشب الدلو ، أو شد من تحته ليقويه ـ

وحسبنا من قوله عن المرأة قولته المكشوفة ، التى يقرر فيها أن :

أركان دنيانا غرائز أربع جعلت لمن هو فوقنا أركانا

والمرء ليس بزاهد فى غادة لكنه يترقب الامكانا

١ ـ ٣٠١

ولنا إلى هذه المسألة بخاصتها عود قريب ... فشأن أبى العلاء فى المسألة الجنسية يستحق القول المفرد

وفى كل حال ، فما سمعنا من أقوال لأبى العلاء يجعلنا نسأل : أكان رأى أبى العلاء فى المرأة قبيحا ؟! أله فى المرأة رأى ثابت يوصف بذلك ؟ ! !

فكر أيها القارىء وقدر

هذا ماعنده فى المرأة ، وأما ...

---

(١) الغفران ص ١٨٢ ، ط هنديه

النســـل

فاسمعه يهنىء بمولود ، فيقول ناثراً : قد سرت الجماعة بالمولود القادم ، أجزل الله حظه من اسمه ، وأعطاه الغاية مما كنى به ... ويشتد به الفرح حتى يقول فى ختام رسالة هذه التهنئة : وكان ينبغى ألا نهنىء به ، لأنا شعرات فى فى جسده ، وحصيات من أرضه ، ولـكن الجذل غلب فاستفز [1]

وإن لم تعرف متى كانت هذه التهنئة بالمولود . أكانت قبل عزلته أم بعدها ؟ فانا لنقرأ له تهنئة . أخرى بمولود ، فى قصيدة ، يصرح فيها بأنه الآن فى صبر واعتزال [2] ، ومنها يقول فى التهنئة بالمولود :

هنيئا ، والهناء لنا جميعا   يقينا ، لا يظن ولا يخال
بمنتظر ، مراقبة السوارى   يهش لبرقها عُصب نهال

ويرجو للمهنأ المزيد من النسل والولد فيقول :

أهل ، فبشر الأهلين منه   محيا فى أسرته الجمال
بأخوته الذين همو أسود   على آثار مقدمه عجال

ويصف كثرة الولد وأثرها فيقول :

وهل يشق الفتى بنماء وفر   إذا لم تتل أينقه فصال

هذا قول الذى رأى أن الحزم عدم النسل ، بل رآه ذنبا لا اقالة منه ... والذى رأى النسل فرش هموم الفتى ، وأذى للوالدين ؛ هو القائل من القصيدة السابقة فى التهنئة ، مخاطبا أبا الوليد :

---

(١) رسائل المعرى ط اكسفورد ص ١١٣

(٢) سقط الزند ٢ : ١٨٠ .. وليقدر القارىء أن من أبيات هذه القصيدة نفسها قوله :

وحالى خير حال كنت يوما   عليهـــا وهى صـــبر واعتزال

بأن الله قد أعطاك سيفا عـدوك من مخايله يهال

كما يقول :

ستركز حول قبتك العوالى وتـكـثر فى كنانتك النبال
فإن مناى أن يثرى حصاكم ويقصر عن زهائكم الرمال

وكما هنأ الإنسان بالمولود ، دعا للطير العابدلله بسلامة الولد ، فقال : وإن كنت عابداً لله فأثّ ريشك ، وسلم ولدك ـ ف ٤٢٩ ـ

وهو فى اللزوميات ، يقدر نفع النسل ويقول : إن خير النسل مانفع:

خير النساء اللواتى لا يلدن لكم فإن ولدن ، فخير النسل ما نفعا

٢ـ٧٩

ويقدر فضل الابن فى حمل العبء عن أبيه ، ويأمر الولد بذلك :

تحمل عن أبيك الثقل يوما فإن الشيخ قد ضعفت قواه

والذى رأى خير النساء العقيم، هو الذى بارك النسل من المرأة الحصان العاقلة التى عدها نعمة يحسد عليها زوجها ، إذ قال :

فأن جمعت الى الاحصان عقلا فبورك مثمر الغصن الوريق

٢ - ١٢٣

والذى يذكر جناية الأب على الولد حتى لو عقه الولد لـكان قد كافأه بسوء صنيعه ؛ هو هو الذى يذكر عطف الوالدين على الولد ، ويذم منه سوء معاملته لهما ؛ ويضيف صنيعهما الحسن معـه فيقول : وأحـسن وأجمـل بالذى فعلاه :

ولو بمشار العين . يوحى إليهما لوشك اعتزال العيش لاعتزلاه
يودان إكراما ، لو انتعل السها وأن جُذيا الشّلاءَ وانتعلاه
يذم لفرط الغى ما فعلا به وأحسِن وأجمِل بالذى فعلاه

٢ - ٣٣٧

والذى عد الاشتغال بالنسل ، اشتغالا بما لاينفع ، هو الذى يعنف من يمن على أبنائه بالنزر ، ويلفته إلى صنيع الطير لأبنائها ، وإعطائها إياها ما فى حواصلها :

منت على أبنائك النزر آسفا فأنت عليهم كالألد المفاصل
ولم تسع فيهم ليلة سعى متعب الى أن يبين الصبح شيبة ناصل
ألم تر زغبا أدلجت أمهاتها فألقت لها ما حصلت فى الحواصل

٢ - ١٨٦

وهو يتحدث عن صنيع القطا فى هذا فيصفه فى موضع آخر قائلا :

عجبا للقطا ، من الكدر والجُو ن ، غدت فى عنائها المتواصل
لقطت حبة وجاءت بها الأف راخ ، ثم استقت لها فى الحواصل

٢ - ٢١٥

وأخيرا فإن أبا العلاء الذى يظن أنه صمم على عد النسل جناية ، واختار هذا الرأى من آرائه ليحمله شاهد قبره ، ويعرفه به الخالفون بعده من الملمين بمثواه ، فطلب — فيما يروى — أن يكتب على قبره البيت المشهور(١)

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

أبو العلاء ، هذا هو الذى يعد النسل أفضل عمل فى هذه الدنيا ، ويعد السعى له عملا معقولا ، ويقول : —

---

١ — ترجمة الذهبى لابى العلاء - من رسائله ط اكسفورد ص ١٣٣

دنياك دار كل ساكنها ... متوقع سببا من النقل
والنسل أفضل ما فعلت بها ... وإذا سعيت له فعن عقل

٢ - ٢٠٦

فهل آثر أبو العلاء العدم ، ورأى من الواجب اتقاء الوجود ، والاجتهاد في قطع سلسلته . ؟؟!! . . هذه آراؤه في المجتمع الصغير وهو الأسرة .

وأما . . .

العـــــزلة

ومجانبة المجتمع الكبير ، فلم يخلف فيها عادته ، فهو يعد المختلط بالناس البر السعيد ، ويقول ناثرا : من اختلط بالعالم ، وصبر عليهم ، وكف نفسه عما يستحسن سواه ، فهو البر السعيد — ف ٢٧٠ — .. كما يشير إلى ضرر العزلة فيقول : إذ كانت الوحدة تغير المعقول ، وتصرف قائلا أن يقول [١] فهو يرخص لمن لا يطيقها أن يزور غبا فيقول :

وإن لم تطق هجران رهطك دائما ❊ فمن أدب النفس الزيارة عن غب

١ - ٩٦

والشيخ الذى شعاره « قاطع » هو الذى قال :

ولو أنى حبيت الخلد فردا ❊ لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت على ولا بأرضى ❊ سحائب ليس تنتظم البلادا

سقط ١ — ١٥٩

فان يكن هذا ليس من متأخر شعره ، فأنه لهو القائل فى اللزوميات :

وتذير الأوطان حب ، وطالما ❊ قنص الحمام على الغصون الميد

١ — ٢٣٥

والذى يأمر بالفرار من الناس هو الذى يرى أن يساعد المرء ضده ، ولا خير فى الاخوان إن لم تساعد

اذا جل خطب ساعد المرء ضده ❊ ولا خير فى الاخوان إن لم تساعد

---

١ — الرسائل ط اكسفورد ص ١١٢

والذى يطلب التوحش فى بيداء تخلصا من الناس ، هو الذى يأمر بالمشاركة العاملة فى إصلاح الجماعة ، ويقول :

إذا أجاز خنازيرٍ خنازيرهِ   غيّر ، وأنكر على ذى الفحش منطقه

١ — ٢٦٠

ويشتد فى هذا ، حتى يقرر وجوب تعزير الملك على أخطائه :

يعزَّر الملك توقيرا ، وحق له   على المآثم تأديب وتعزير

١ — ٢٦٠

He's a genius
Abou-

تقابل آراء أبي العلاء

— ١ —

ذلكم جانب آخر من صورة أبي العـلاء ، أو صورة ثانية غير مألوفة لشخصه ولآرائه ، فى أمور إنسانية ، بعيدة عن المسألة الدينية ، وعن خفيات الفلسفة ، وله هو فيها سلوك خاص ، قيل أنه التزمه وأخذ نفسه به .

عرضنا هذا الجانب الثانى من آراء الرجل ، لنستطيع على هديه ، الأجابة عن السؤال الذى سبق أن وجهناه ، بعد مارأينا موقف أبي العلاء فى مسألة المعرفة ، وتنقله بين الآراء المختلفة فيها جميعا . . وهذا السؤال هو : هل لأبى العلاء آراء ثابتة ؟ .. ولعلنا بعد هذا العرض نسمع إجابة أبى العلاء نفسه عن هذا السؤال بقوله :

فقارب وباعد ، واحب واعلُ ، ولاتقل وقولن ، وجاهر بالمراد وكاتم

٢ : ٢٥٤

فليس لأبى العلاء فيما عرضنا له من الموضوعات ، رأى ثابت مع أنها أولى مايثبت له فيه رأى... وليس لأبى العلاء — فيما يثبت الاستقراء المطمئن — رأى ثابت ، لافرق فى ذلك بين دين ودنيا ، وفن وحكمة، وأدب وعلم . وكل الفرق أنه فى الشىء الواحد قد يتعادل إثباته ونفيه فى كثرة ما يرد منهما ، وقد يكون الايجاب كثيرا ، والنفى قليلا أو العكس ، وليس لهذه القلة فى جانب والكثرة فى آخر قيمة فى تقدير آراء أديب متفنن ، لأنه فيما رأينا يطلق القول مثبتا، ثم يطلقه نافيا ، فيهدم نفيه المطلق اثباته المطلق ، سواء أنفى خمسين مرة وأثبت مرة ، أم أثبت مائة مرة ونفى خمسين ، فنحن لا نحصى عدد النافين والمثبتين من أشخاص

يقترعون ، بل نرصد النفى والاثبات من شخص واحد ، يظن أنه فيلسوف انتهى به بحثه إلى شيء ، وأجرى حياته على وفقه وهو شأن الفيلسوف — على ما سنعرض له بعد — كما أنا لانحاسبه على أخطاء ارتكبها، لنعاقبه أو نعفو عنه ، فتكون القلة أو الكثرة عاملا فى تقدير هذه الأخطاء.. وإنما نحصى آراء، توافقت وتخالفت . على أنك بعد ذلك كله،قد قرأت فيما عرضناه من آرائه فى المسائل الانسانية موافقة كثيرة تخالها الأصل ، ثم قرأت مخالفة كثيرة تخالها الأصل ، فما تدرى بأيهما قال ، وبأيهما معه تقول؟!! وهكذا يستطيع المستقرىء لأقوال أبى العلاء أن ينضد منها ثبتا وجريدة متقابلة ، جانب منها للاثبات وجانب للنفى

* * *

ولشد مايعنينى أن أوجه النظر هنا ، إلى أنى إنما عرضت ما عرضت من آراء أبى العلاء فى أمس الأشياء به ، لأبين أن التناقض ظاهرة عامة شاملة فى آراء أبى العلاء جميعا ، وإنما يعنينى هذا لأن القدماء ، ثم المحدثين معهم ، عند النظر إلى تناقضه ، والبحث فى تعليله، إنما وقفوا عند تناقضه فى المسألة الدينية فقط ، أو لم يذكروا غيره ، فلم يعللوا غيره ... ثم لم يتصدوا فى التعليل إلا لاعتبارات دينية لا غير . . !!

فقد أثبت تناقضه داعى الدعاة، فى مناظرته له، حول تحريم الحيوان؛ فقال: إن نظم أبى العلاء فى هذا المعنى يناقض نثره ، ونثره يناقض نظمه فكيف الحيلة![1]

وذكر الباخرزى فى الدمية — ص ٥٠ — اضطرابه بين التدين والالحاد

(١) معجم الادباء لياقوت، الطبعة الاولى ١ :٢١٢

وساق الذهبي ذلك، وزاد عليه أشياء أخرى كالهاديني [١] .. وذكر الصفدى تناقضه عند ماتحدث عن المعاد، واختلاف أقواله فيه [٢] .. كما أن من عرض لتناقضه من المحدثين ، نظر إليه فى الأفق الدينى ، ورجع فى تعليله إلى اعتبار دينى لاغير ، فلاحظ أنه كثيرا مايثبت البعث وكثيرا ماينفيه ، وكثيرا مايثبت الجبر ، ولايكره أن يثبت الاختيار ، وكثيرا ما يهزأ بالدين ، ثم لايكره أن يحث عليه ، ويعلل ذلك بأنه كان تناقضا مقصودا ، من غير شك؛ قد ذهب به مذهب اللبس والتعمية، قصداً إلى التقية ، وهى مذهب معروف [٣]

ولكننا قد رأينا تناقضه فى حب الدنيا وكراهيتها ، ولو أحبها أبدا وكان من أنشط طلابها ـ كما كان كذلك حينا ما ـ ما أنكر عليه ذلك أحد ، ولو كرهها أبدا ما كفره أحد .. وقد تناقض فى المرأة فعدها شرا وضراً وعدها نعمة وجنة ، ولو أخذ بأحد هذين الرأيين أبدا، ما قاتله أحد.. وتناقض حتى فى اختيار الميتة التى يموتها ، فقد عد موت الوغى بضربة السيف سعادة ، ثم عد أحسن ميتة الرجل ما كان على فراشه ، تشتد به العلة..الخ.. وليس لمثل هذا الرأى يغضب الناس ، ويحاكمون أحداً، حتى يلجأ إلى التقية... !! لقد تناقض فى كل شىء مما للناس فيه اعتقاد وقول يحترمونه ، أو ليس لهم فيه رأى يلتزمونه ، فكيف تكون التقية تعليلا لتناقض أبى العلاء ، فيما لا موضع فيه لتقيته أبدا ؟!! بل إنى لأرى التقية لا تصلح أبدا علة لاختلاف أقوال أبى العلاء حتى فى الأمور الدينية ـ لأن التقية ـ كما يصفها المعللون بها إنما هى اختلاف ظاهر وباطن ، طاعة ظاهرة وقلب مخالف ، وتوافق ظاهر، وإضمار خلاف

(١) ترجمة الذهبي لأبى العلاء ضمن رسائله، طبعة أكسفورد ص ١٣٣، ١٣٤
(٢) نكت الهميان فى نكت العميان ١٠٦
(٣) ذكرى أبى العلاء ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧

وهذا من التقية مفهوم، لأنه إخفاء ما يكره الناس، ويغضبون من أجله. أما حين يقول الرجل قولين متخالفين، ويعلنهما على السواء، ويجهر بهما معا فإن الناس سيأخذونه بالقول السوء ولا بد، ولن يشفع له عندهم، أنه قال قولا حسنا، وبخاصة إذا كانت المسألة مسألة العامة والجماهير، أومسألة المتعصبين من الفقهاء المرتزقين بفقههم، وهل ترى الناسك الزاهد، المعتقد المتبرك به حين يظهر منه الكفر الصراح، ويجهر به، سيغفر له الناس هذا ويعتذرون له بخيره الأول؟ كلا.. ولعلنا نذكر أنه فى محاكمات الزنادقة، قد كانت توجه أقوالهم غير الصريحة، وتفسر إشاراتهم غير الواضحة تفسيرا متهما يؤخذون به، ويقضى عليهم... فكيف يكون صنيع أبى العلاء من التقية، وقد ظهر منه القول الصريح الكافر الهازىء ..!!

وفى كل حال فسواء أكانت التقية لاتعلل مطلقا تقابل آراء أبى العلاء الدينية، أم كانت تصلح لأن تعلل التقابل فى الدينيات فحسب، فستظل وراء ذلك تناقضات أخرى، وتقابلات كثيرة، تحتاج إلى التعليل .. وهذا موضع الرأى الذى رمناه فى أبى العلاء

وإنى لأحسب أن أبا العلاء نفسه قد شعر بهذا التناقض حين قال:

جهل مرامى أن تكون موافقى   وشكوك نفسى بينهن تعادى

١ : ٢٣٧

وكأنما أراد الاعتذار لهذا التناقض منه، أكثر من مرة كقوله:

تناقض فى بنى الدنيا كدهرهمو   يمضى المقيظ، وتأتى بعده القرر

١ : ٢٥٤

أو قوله:

وعالم فيه أضداد مقابلة غنى وفقر، ومكروب ومقرور[1]

١ : ٢٥٩

أو قوله :

والملك لله، والدنيا بها غير خير وشر، وإعدام وإيجاد

١ : ٢٠٤

أوقوله :

وإن أخا دنياك، أعمى يرى السها عليل معافى، ظالم يتظلم

٢ : ٢٢١

فالرجل يحس تناقض الدهر فى فصوله المختلفة، وتضاد العالم، وتقابل الأضداد فيه، واختلاف أحوال بنى الدنيا، ويشتد عليه الاشتباه فيشكو تضاد الأشياء فى الحس، قائلا :

ولكل ما أصبحت تدرك حسه ضد؛ وكبرة من ترى كصغار

١ : ٣٤٣

وكأنه حينما يؤثر هذا التضاد فى العقل أثره يقول:

ويعترى النفس إنكار ومعرفة وكل معنى له نفى وإيجاب

١ : ٦٨

وسواء أكان هذا دليلا على أن أبا العلاء، قد شعر بهذا التقابل فى آرائه، فقصد الاعتذار بمثل هذه الأبيات من قوله، أم لم يكن قد أراد الاعتذار عن شىء منه، فإن التقابل فى آراء أبى العلاء — دينية وغير دينية على السواء — ظاهرة واضحة؛ لا تعللها التقية؛ ولا القصد إلى الاستخفاء.. ظاهرة واضحة تحتاج إلى تعليل متسق؛ ولكنا لا نعرض لهذا التعليل، إلا بعد أن ننتهى الى رأى بشأن :

---

(١) المقرور : المسرور

تفلسف أبى العلاء

لنعرف أكان صنيع الرجل فيما دوّن من آثاره؛ صنيع متفلسف؛ فنخضع عمله لمنطق العقل؛ ونحتكم اليه فى فهمه ودفع تناقضه، . أم كان صنيع متفنن أديب متأمل؛ فنخضع ذلك كله لمنطق العاطفة والوجدان، ونقدر فيه أثر العوالم النفسية المختلفة؟

وقد لهج المحدثون بتفلسفه، وأسلفنا بعض وصفهم له بذلك، بل إنهم عدوه فيلسوفا ايبيقوريا . ولحوا نواحى التشابه بين أشياء عنده، وأشياء فى المدرسة الايبيقورية (١) . فلنعرض صنيع أبى العلاء على الفلسفة، كما يعرّفها أبيقور هذا حين يقول: إنها هى الحكمة العمليه التى توفر السعادة؛ بالأدلة والأفكار (٢) .

وهو قول لا يفترق كثيرا عن الفكرة العامة فى الفلسفة؛ وأنها دائما هى البحث الحر عن الحقيقة، مهما تختلف الاعتبارات فى تعريفها .

فإذا ما عرضنا صنيع أبى العلاء، فى آثاره المختلفة على الفلسفة كما عرّفت، تبين لنا ما يأتى :

أولا — ليس لأبى العلاء بحث بالمعنى الصحيح، عن الحقيقة، وليس هنالك إلا خواطر منثورة، فى جملة أو فقرة قصيرة؛ أو منظومة فى بعض شطر، أو فى شطر من بيت، أو فى بيت أو بيتين، أو أكثر من ذلك قليلا، فليس من الانصاف لتاريخ الفلسفة، ولجهد الفلاسفة أن يسمى مثل هذا الصنيع فلسفة وبحثا، مهما تتناول هذه المنثورات أو المنظومات، من آراء

---

(١) الدكتور طه حسين بك فى ذكرى أبى العلاء، ومع أبى العلاء فى سجنه

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية للاستاذ يوسف كرم ص ٢٨٧

وفكر فلسفية ؛ ومهما يكن نوع الفلسفة التي تشير إليها هذه الفقر والمعاني الاجمالية ، اشارات مبهمة ، أو لامحة مجملة، لا أكثر ولا أقل وإنما قول أبي العلاء في كل ذلك أشبه شيء بالمثل العامي ينتظم فكرة ، قد تكون رأس فلسفة ، وخلاصة مذهب ، وما هي في حساب قائلها الأول أو ضاربها الثاني ، إلا مغزى حكاية ، وثمرة ممارسة ؛ وملحظا واقعيا ، لحادثة أو عمل كان . وذلك شيء غير البحث الفلسفي والتأمل الدارس ، الذي يجرد المتفلسف نفسه له ويصطنع له منهجه ؛ ويأخذ نفسه بطريقته في المعرفة ، ليعرف حقائق الأشياء على ماهي عليه؛ كما يقول الأقدمون ، وليفكر ويقدر ، ويسبب ويعلل .

ثانيا — : أن مسألة المعرفة ، وهي شطر الفلسفة ، لم نستطع أن نعرف لصاحبنا فيها اتجاها ، ولا منهج تفكير فهو فيما عرضنا — أول الحديث — من شعره ونثره ، في أدوار حياته المختلفة ومراحل سنه المتباعدة، يثبت إمكان المعرفة ويذكر وسائطها . . وينكر إمكان المعرفة ، ويهدر تلك الوسائط ، واحدة واحدة . . فهو يوقن وهو يشك ، وهو يحار ، وهو يطمئن ، وهو ينفي ، وهو يثبت ، وهو لا يثبت ولا ينفي . . . فلا يسع المدقق إلا أن يعد ما نظمه أبو العلاء في المعرفة ومذاهبها . ضربا من الشعر التعليمي ، يمكن اتخاذ عناوين منه لمختلف الآراء ، في المناهج التفكيرية الفلسفية . أو يمكن اتخاذ عناوين له ، من تلك المذاهب التفكيرية... وأما أن يكون شيء من ذلك النظيم والنثير ، مذهبا في المعرفة خاصا ، فما احسب هذا يهون ولا يقبل . ! ! وكما لا نطمئن إلى أن لهذا المتحدث عن الفلسفيات دستورا للتفكير أو البحث ؟

ثالثا — : إذا ما كانت الفلسفة هي الحكمة العملية ، بالأدلة والأفكار ،

كما فى تعريف ابيقور ، الذى احتسبوا أبا العلاء صديقا لفلسفته ، فلئن كنا قد نتسمح بأنه يسوق فى آثاره فكرا ، فأنه لا يستدل لها ، إلا بالتشابه اللفظى بين الكلمتين ، أو بالملاحظة الساذجة ، أو المناسبة المستملحة ، على ما يشعر به المتصل اتصالا ما ، بشعره ونثره ، ولا حاجة بنا الى الاستكثار بسوق الشواهد المجتمعه عليه هنا ، لأنه واضح مستبين ، يجده القارىء فى كل ما يصيب من آثار صاحبنا . ومثل هذا من المجانسة أو المشاكلة أو المشابهة أو المناسبة، وما اليها فى لفظ وتعبير ، لن يعد فى حساب الفلسفة استدلالا ، ولا شبيها به ، والا فقل لى بربك: كيف يدل اتخاذ الكلل للنساء ، على أنهن أذى وكيد يحبسن فيها !! وكيف يدل اتفاق النعش والانتعاش فى لفظهما على فضل الموت ووجوب التخلص من الحياة !! وكيف! وكيف مما يعرفه من قرأ آثار أبى العلاء ! وهل هان الاستدلال الفلسفى الى هذا الحد ، فصارت الصنعة اللفظية التى يمقتها الأدب ، وينكرونها أو ينكرون الكثير منها على ابى العلاء ، عملا فلسفياً عقلياً ، يسلك به الرجل فى زمرة الحكماء ، إذا جودل فى احتسابه من الشعراء .

رابعا — : أنا إذا ما تساهلنا فى كل ذلك ، فعددنا هذه المرسلات المتفرقة آراء فلسفية ، وتركنا الأدلة والاستدلال جانبا ، ورحنا نعرف مذهب ابى العلاء ، والوحدة الفلسفية التى تعنون مذهبه ، فماذا نجد ؟ ؟ إنك لتجهد فى أن تعرف مذهب أبى العلاء ، فيما عرضت عليك من كثير قوله، فى الشؤون الانسانية ، كالزهد والجد ، وحب الحياة وكرهها ، والمرأة والزواج ، والنسل، والعزلة و و . . إلخ فلا تستطيع أن تخرج بشىء معين ،

فهو كما رأينا وسمعنا ، زاهد وكادح ، منكر للزهد ، وحاض على التنعم ، وهو ناسك يتحسر على الشباب ، وهو محرم النسل ، يعده أفضل ماعملت فى الدنيا،وهو معتزل منفرد ، لو حبي الخلدفرداً لما أحب فى الخلد انفرادا .وهو .. ثم هو..فأين نضع بين الفلاسفة صاحب هذه المتقابلات ؛ التى شملت كل شيء تعرض له ؟ وما مذهبه من هذه المتقابلات (١) ؟؟

خامسا : — إن الفلسفة إنما تتميز بتأثيرها على سلوك الفيلسوف ، وعدم اختلاف قوله عن فعله ، وهى بذلك تفترق عن العلم ، إذ تطبع فلسفة الفيلسوف سلوكه ، ولا كذلك يفعل العلم ، فالفيلسوف الذى انتهى به

---

(١) يذكر صاحب كتاب « أبو العلاء وما إليه » مايظن أنه توفيق بين تفلسفه وتناقضه فيقول فى ص ٢٩٩ مانصه :

« وليس معناه أنه كان يهذى هذيان المتوهين، بل الحقيقة ليس فى الدنيا شيء إلا وله جانبان ، من جهة حسنه فى بعض الأحيان، وقبحه فى غيره ؛ فالفيلسوف الطبعى هو الذى لايغفل عن الجانب الآخر ، والطبيب الحاذق هو الذى يعرف بمحل الداء ومقداره ، فيصف له الدواء الصالح ، فأبو العلاء إذن فيلسوف بالطبع لا بالتصنع والتكلف . حتى تغلب عليه الفلسفة فى غير حينه ، شأن الفلاسفة المتفيقهين » اه ... ولا أعرف معنى الفلسفة بالطبع والفلسفة بالتصنع، كما لاأعرف التفيهق فى الفلسفة ، والفيلسوف إنما هو المفكر الذى يجرى حياته على مذهبه، على ما تقرأ فى الفقرة الخامسة من هذه الفقرات!! كما أنى لاأفهم كيف يكون ادراك مافي جانبى الشيء علي اختلاف الاحوال سببا للتناقض !! فلوأن أبا العلاء يدرك أن شيئا ماحسن من جهة أو فى بعض الأحيان ، وقبيح من جهة أخرى وحين آخر، فيقرر ذلك مقيدا بوقته وحالته ، لما كان هناك تناقض ولا مايشبه التناقض فى شيء ، ولكن أبا العلاء ينفى نفيا عاما مطلقا ، ويثبت إثباتا عاما مطلقا ، على ماقرأت من متقابلاته التى عرضتها عليك ، ووجدتها فى مختلف آثاره ، ومتفاوت أعصره ، فكيف تكون هذه فلسفة بالطبع لا بالتصنع !! هذا ما أعترف نى لم أفهمه !! ولا أتبين فيه توفيقا ما، بين تفلسف أبى العلاء وتناقضه...!!

الدرس الباحث إلى كذا من الرأى فى الخلق والعمل ، لاتجده يخالف هذا الذى ذهب إليه وانتهى به درسه ، على حين ترى العالم الرياضى أو الميكانيكى مثلا ، بوهيمى السلوك ، مشوش العمل ، مضطرب التناول ، رغم ماوقف عليه حياته ، من دقة وضبط ، وتحديد ونفاذ . . . وإنما نعنى بالفيلسوف والعالم الأصيل ، منهما ، صاحب الصفة الكاملة فيهما ، فالفيلسوف هو المفكر المتأمل الأصيل ، الذى يسخر قواه لمعرفة الوجود ، ويتبع عمله رأيه ، وليس هو متعاطى الفلسفة قراءة أو تعليما أو ترجمة أو نحو ذلك من اتصال ، قد تبعث عليه أناقة ، أو طرافة ، أو تلهية ، أو تكاثر ، أو نحو ذلك ، مما يقع للمتصلين بالفلسفة ، والواصلين أنفسهم بها ، أو الذين وصلتهم ظروف الحياة بها ، فهؤلاء هم من لانعنيهم إذا أشرنا إلى تأثير التفلسف على السلوك ، وطبعه له ، وتوجيهه إياه .. فلا يشتبه الأمر فى ذلك .

وهذا التأثير للفلسفة على السلوك ، مما لحظه مفلسفو أبى العلاء ، فى هذا العصر ، فعقد الأستاذ الدكتور طه حسين بك ، فى كتابه « ذكرى أبى العلاء » فصلا عنوانه : هل أبو العلاء فيلسوف ؟ أورد فيه تعريف الفيلسوف ، وبين تحققه فى أبى العلاء ، وإليك قوله ، بيانا لفكرة تأثير الفلسفة على السلوك ، فهو يقول : —

« مهما كان أصل هذا اللفظ فى اليونانية ، ومهما كانت معانيه عند »
« المسلمين ، فإنا نفهم منه رجلا درس[١] العلوم الطبيعية والآلهية ، والخلقية »

---

(١) يعبر الاستاذ هنا بلفظ « درس العلوم » كما سيعبر بعد قليل ، بقوله « أتقن هذه العلوم » وليس الفيلسوف محصلا يدرس ويتقن ، والادق ما سيعبر به أخيرا ، فى قوله « بحث عن حقائق

« درسا علميا متقنا ، وبسط سلطانها على حياته العملية،وسيرته الخاصة فلم »
« يكن تناقض بين هذه العلوم وبين أعماله . وكذلك كان الأقدمون من »
« فلاسفة اليونان يفهمون هذا اللفظ،فالرجل الذى أتقن هذه العلوم ، ولكن »
« حياته تناقضها ، فهو يعرف الفضيلة ويناضل عنها ، ولكنه لا يصطنعها »
« فى سيرته ، ليس بالفيلسوف عندنا الآن ، وإنما هو عالم بالفلسفة ؛ »
« والرجل الخير يؤثر الفضيلة ويحرص عليها ، لأن نفسه قد فطرت على »
« ذلك ، من غير أن يكون متقنا لهذه العلوم ليس بالفيلسوف عندنا الآن »
« أيضا . وإنما هو رجل خير فحسب . فإذا جمع بين هذين الطرفين فأجاد »
« الحكمة علما وعملا : أى بحث عن حقائق هذا العالم . وكانت حياته موافقة »
« لنتائج بحثه . فهو الذى نفهمه فى هذا الكتاب من لفظ الفيلسوف »
« أو الحكيم » .

وهذا الذى فهمه الأستاذ . وانتهى إليه من أن الفيلسوف بحث عن حقائق هذا العالم ؛ وكانت حياته موافقة لنتائج بحثه ، هو ما نريده هنا من الفيلسوف أو الحكيم . لكن الأستاذ تقدم بعد ذلك فيما يلى من هذا الفصل لاثبات هذه الصفة لأبى العلاء فقال :

« إذا صح هذا فما قدمنا فى المقالة الثانية من سيرة أبى العلاء وأخلاقه
« وحياته فى منزله وبين الناس . ومن درسه للفلسفة فى أنطاكية وطرابلس »
« وبغداد ، يدلنا على أنه قد كان فيلسوفا حقا . كما سيدلنا على ذلك درسنا »

هذا العالم » وكذلك يكون الفيلسوف ، وليس هو دارس يتقن علوما مقررة مدونة أو يحصلها .

« للزوميات » اهـ من ذكرى أبى العلاء ص ٣٢٩ — ٣٣٠ من الطبعة الأولى .

ونرجع إلى المقالة الثانية فنقرأ أنه : كانت بأنطاكية مكتبة عربية ، تشتمل من نفائس الكتب ، على عدد غير قليل : فحفظ منها أبو العلاء ما شاء الله أن يحفظ — الذكرى ص ١٥٤ ط أولى — وأن أبا العلاء وصل إلى طرابلس . وكانت بها مكتبة كبيرة وقفها أهل اليسار فدرس أبو العلاء منها ما شاء . ثم عاد إلى معرة النعمان — الذكرى ص١٥٧ ط أولى — . وأما فى بغداد « فما لاشك فيه أنه لم يجلس مجلس التلميذ من أحد — الذكرى ص ١٩٠ ط أولى — ولم يكن فى بغداد أستاذا ولا تلميذا . وإن كان قد زار مكتبتيها ، وقرأ مافيهما من كتب الحكمة ، وحضر المجمع الفلسفى بدار عبد السلام البصرى ـ المصدر السابق ص ١٩٢ ـ وإذا ما كان درس أبى العلاء للفلسفة فى أنطاكية وطرابلس وبغداد أيضا هو الحفظ من المكاتب ، فأنك لن تطمئن إلى أن هذا هو البحث عن حقائق العالم . الذى عرفنا أنه شطر عمل الفيلسوف . . على أنك تجاوز هذا وتفرض أن أبا العلاء أجاد الحكمة علما وعملا ، أى بحث عن حقائق هذا العالم ، وتسأل أ كانت حياته موافقة لنتائج بحثه ، كما يجب أن يكون الفيلسوف فى تقرير مفاسفى أبى العلاء أنفسهم ؟؟

وهنا يبدهك فى الإجابة عن هذا السؤال ما قرأته لأبى العلاء . من نتائج بحث — إن تساهلت فسميتها كذلك — فلا تعرف له نتيجة ثابتة . لم يخالفها . ولم يقرر غيرها . فالى أى نتائج بحثه كان يستند سلوكه ؟ ؟ وقد قال الشىء وضده دائما أو على الأقل : فيما قرأت هنا من أمور الحياة العملية . .

وإذا لم تعرف إلى أى نتيجتى بحثه . وأى عبارتى قوله استند فعله . فقد بقى أن فعله لا يستند إلى شىء من قوله ، ولعل هذا ما نستطيع القول به حين نتحدث عن « أبى العلاء بين قوله وفعله » فيما يلى من هذا الرأى .

فلو كانت العزلة والوحدة كما دعا إليها ، وحبب فيها أحيانا ، لوجب أن يلتزم العزلة دائما .. ولكنه لم يفعل هذا — كما سترى — ولو كانت العزلة غير محبوبة، والاختلاط والتعاون والسعى فى الأرض خيرا لوجب أن يكون ذلك عمله.. ولكنه كذلك لم يفعل هذا دائما، أو لم يفعله على وجهه، فقد حاول العزلة،وأعلن أنه صمم عليها ، ولكنه ظل يختلط ويدرس ويثقف، ويلقى الناس كثيرا أو قليلا !

ولو كانت الحياة، كما كرهها وكرّه فيها،لحرص على التخلص منها... ولكنه رغب فى هذا التخلص ،ولم يفعل ..

ولو كانت الحياة محببة بالغريزة . وهو يحبها، كما قال، لأقبل عليها واطمأن اليها . . ولكنه لم يفعل ذلك خالصا ولا متسقا . . وفى كل حال فان صلة ما بين قوله وعمله، لم تجر على دستور الفلاسفة المعروف ، الذى قرأت تقريره فى قول مفلسفى أبى العلاء انفسهم . . وقد فعل أشياء وافقت بعض قوله، ولكنها خالفت كذلك بعض قوله ، فمال إلى الإقلال والقناعة ، وكف عن التكثر والتمتع وترك الزواج ، وبذلك لم ينسل . وأنت غير مستطيع ان تجعل هذا موافقة لقوله أو لنتيجة بحثه ، لأنه يوافق بعض القول، حين يخالف بعضه ،فبقى ان تلتمس مرجحاً آخر.غير هذا القول المتفلسف، أو التفلسف الباحث. قد كان سبب

ماجنح اليه أبو العلاء فى أمر حياته ونظامها . . وهو ما وعدناك أن نعود اليه بعد الانتهاء ، إلى وجه الرأى فى تفلسفه ، الذى رأينا منه حتى الآن : أن أبا العلاء لا يظهر فيلسوفا بالمعنى المعروف لهذه الكلمة ، ولا لهفلسفةخاصة تقوم على منهج تفكير ، واسلوب بحث ومذهب فى المعرفة ، وتقرر آراء واضحة معينة . وإننا لهذا لا نجدحتى الآن مايدلنا على أنه قد كان فيلسوفا حقا . بل إنا لنجد غير قليل مما يدلنا على :

إخلال أبي العلاء بمنهج الفلسفة

فمن ذلك أولا : أن هذه الفلسفة ليست إلا البحث الحر ، لايحد نظر المفكر فيه حد ، ولا يحتكم فى عقله ، غير منهجه،فهو لايعترف بأسرار محجبة ولا يسلم بوجود مناطق فى الكون محرمة على العقل ، وذلك جلى فى طابع التفلسف،لايحتاج إلى فضل بيان أو تأييد ، ولكن صاحبنا يخل بهذا فى مثل قوله ، بعد حديثه عن الروح :

وروم الفتى ماقد طوى الله علمه   يعد جنونا أو شبيه جنون

٢ : ٣١٠

فيجعل فى موضوع البحث والتفكير ، ماطوى الله علمه ، ويرد العقل عنه ، بل يقسو فى رده ، فيعد رومه معرفة هذه المطويات ، جنونا أوشبيه جنون !!! وإنك لتقرأ هذا فى حديث من سموه فيلسوفا ، عن الروح ،فتذكر حين تقرؤه أن الغزالى ـ وهو رجل قد عادى الفلسفة وناهضها ،ووقف فى وجه حريتها العقلية، بكل مايستطيع ـ يسمع قول القرآن ، كتاب دينه عن الروح: « قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »، فلا يمنعه ذلك من تقرير إمكان التحدث فى الروح ، وتفسير كونها من أمر ربه ، تفسيرا لا يجعل رومها جنونا ولا شبيه جنون ، كما يقول أبو العلاء المتفلسف ، الموصوف بالجرأة

وإنى إذ أقرر ذلك ، لأذكر أن أبا العلاء ـــ كدأبه ـــ قد قال ما يغاير هذا المعنى ، حين رأى أن الظن والتجربة كافيان لمعرفة الغيوب:

إذا قرن الظن المصيب من الفتى   بتجربة جاءا بعلم غيوب

فلم يثبت على رأيه حتى النهاية ، وإن كان هذا القول الأخير لا يناقض المعنى الأول تماما ، إذ قدرة العقل بالتجربة على علم غيوب لا تنفى أن فى الغيوب مناطق ، قد طوى الله علمها فلا ترام . ورومها جنون أو شبيه جنون ...!!

وكذلك يخل أبو العلاء بأصول التفلسف . إخلالا يزيد ظهوره ووضوحه . حين تعرف من أمره :

ثانيا — أن الفلسفة إنما هى فهم العالم فهما عقليا ، يقوم على تقرير أن المسبب يترتب على سببه ، والنتيجة تتلو مقدمتها ، لثبات النواميس الكونية والسنن الفطرية ، وارتباط المسببات بأسبابها ، وأنكار التخلف ، ونفى الصدفة وما إلى ذلك . ولعل الخلاف فى مسألة الأسباب والمسببات وما يتصل بها ، هو أكبر ما بين الدينيين والحكماء من خلاف . فالدينيون على اختلافهم ينكرون هذه السببية ، واطراد السنن . ويقولون بلسان الغزالى — وهو من أكثرهم تنورا — حين عرض لهذه المسألة فى تهافت الفلاسفة[1] فقرر :— أن الاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا وما يعتقد مسببا ، ليس ضروريا عندهم — أى المليين — وأن مثل الرى والشرب ، والشبع والأكل ، والاحتراق وملاقاة النار ، والنور وطلوع الشمس ، والموت وجز الرقبة ، والشفاء وشرب الدواء ،.. وهلم جرا ، إلى كل المشاهدات ، من المقترنات فى الطب والنجوم ، والصناعات والحرف ، فاقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه ، لخلقها على التساوق ، لا لكونها ضروريا فى نفسه ، غير قابل للفرق ، بل فى المقدور خلق الشبع دون الأكل

---

(١) التهافت ط مصر ص ٦٥ - ٦٦ باختصار وتصرف يسير .

وخلق الموت دون جز الرقبة ، وإدامة الحياة مع جز الرقبة ، وهلم جرا ، إلى جميع المقترنات ... وفاعل الاحتراق عند ملاقاة النار . هو الله تعالى ، أما بواسطة الملائكة ، أو بغير واسطة ، وأما النار فهى جماد لا فعل لها ، وليس لهم — أى الفلاسفة - ألا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده لا على الحصول به

وهذا هو ما ينكره الفلاسفة ، ويرون استحالته ، ويقول ابن رشد بلسانهم ، فى الرد على الغزالى فيما قال سابقا (١) :

« . . أما أنكار وجود الأسباب الفاعلة ، التى تشاهد فى المحسوسات فقول سوفسطائى ، والمتكلم بذلك ، إما جاحد بلسانه ، لما فى جنانه ، وإما منقاد بشبهة سوفسطائية عرضت له فى ذلك » . . حتى يقول :

« فالعقل ليس هو شيئا أكثر من إدراكه الموجودات بأسبابها ، وبه يفترق من سائر القوى المدركة ، فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل . وصناعة المنطق تضع وضعا ، أن ههنا أسبابا ومسببات ، وإن المعرفة بتلك المسببات لا تكون على التمام إلا بمعرفة أسبابها ، فرفع هذه الأشياء هو مبطل للعلم ورافع له » .

وفى مناقشة ابن رشد لما يسميه المليون فى حصول هذه الأشياء «عادة» ، يذكر الفيلسوف ، اطراد النواميس ويحتجها بأن الله عز وجل يقول : ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

تلك هى مسألة من أهم ما فرق بين الفلسفة والدين ، وأساسها كما قرأنا — من

(١) تهافت التهافت . الطبعة السابقة ص ١٢٢ - ١٢٣ .

قول ممثلى الطرفين هو تحكم أصحاب الدين فى توسيط قدرة الله بين السبب الطبيعى والمسبب ، وجعلها الفاعلة باختيار لكل شىء ، وأنكار أن يكون لهذا السبب المشاهد فعل ، وأن يتقرر بذلك ناموس ثابت لا يتخلف ، لرغبتهم فى أن تبقى الكلمة للقدرة الآلهية ، حتى تحول بين المؤثرات والأثر . فتكون نار ولا أحراق ، ويكون إحراق بلا نار ، ويكون قطع رقبة ولا موت ...

ولو رحت ترقب حرية الفكر فى المليين ، لاستطعت أن تجعل هذه المسألة مقياسها ، وانه بقدر مايقبل الدينى ، من هذه السببية وثبات الناموس ، يكون حر الفكر ، أو يكون محافظا ، وهكذا تجد المعتزلة مثلا يقررون هذه السببية ويوفقون بينها وبين فعل الله لكل شىء ، وقدرة الله على أن ينشىء الأجناس كلها بلا أسباب ولا مواد ، كما أنشأ نفوس الأسباب والمواد (١) . حين تسمع أهل السنة يقررون مثل الذى قرأت من تحكم قرره الغزالى فى نص التهافت السابق .

وتجد المتجددين ، من الدينيين ، فى العصر الحديث ، يحرصون على تقرير : أن ثبات السنن إرشاد لم يعهد فى غير القرآن ، وينكرون على المليين فى جميع الأجيال ، أن تكون أفعال الله كأفعال الحاكم المستبد ، تستند إلى المشيئة المطلقة ، وتقرأ عن هذا قطعة طريفة للاستاذ الأمام رحمه الله فى تفسير المنار (٢) ...

---

(١) الزمخشرى : الكشاف ١ : ١٨٠ عند تفسير قوله تعالى : وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم . سورة البقرة : ٢٢

(٢) ج ٤ ص ١٤٠ وما بعدها في تفسير قوله « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا » من سورة آل عمران آية ١٣٧

وحيث كانت المسألة من الأهمية ، على ما رأيت ، حتى بسطنا القول فيها نوعا ما ، فمن البين أن نعرض أبا العلاء على الآراء فيها ، لنستبين قربه أو بعده من الروح الفلسفية أو الدينية ، فماذا يرى أبا العلاء فى القدرة الآلهية ، والأسباب والسنن الكونية ؟

نحن نعرف من آثاره أنه عرض لهذه المسألة ، الكبيرة الأثر ، فى بيان الفرق بين الأصلين : الدينى والحكمى ، فهل كان يفكر فيها تفكير متفلسف له الشخصية الحرة التى يدعيها له مفلسفوه ؟؟... سنسمع من قوله الاجابة عن ذلك .

أن أبا العلاء قد أحس حينا ما ثبات الفطرة ، وجنح نوعا ما إلى استقرار النواميس ، فتسمع له مثل قوله فى بعض رسائله .

وقد ذكر من حاله ، فقد أسباب العلم بآفته ، ونشأته فى بلد لا عالم فيه ، وأنه ليس صاحب الثروة فكيف الحداء بغير بعير . فقال : فإن بلغ سيدى الشيخ ، أن سارى الليل . قبض على سهيل ، وأن الأرض أنبتت وشيا وحريرا ، والسحاب أمطر مداما وعبيرا ، فهو أعلم برده على المبطلين . حسب الأرض ، أن تعتو بخلة وحمض . وعادة السحاب المرتفع فى السماء أن يأتى برى الظماء .. الخ »(١) .

فهو كما ترى يعد مخالفة طبائع الأشياء من قول المبطلين ، ويطلق القول بذلك الثبات للنواميس لا يستثنى ولا يقيد ...لكن أبا العلاء ، كما عرفته فى هذا البحث . لا يكفيك فى فهمه بعض قوله دون بعض ، فامض قدما ، تسمعه

---

(١) رسائل المعرى ط أوربا ص ٦١

حينا آخر، يقرر ثبات النواميس ؛ لكن فى تحوط ، واستعداد للانسحاب — كما يقول الحربيون الآن — فاقرأ قوله فى الفصول[١] «... والشىء كما فطر، حتى يأذن له خالقه بالتغيير . فإن قيل : إن الديمة مطرت مداما ، وإن الأرض أنبتت أهداما — جمع هدم وهو الكساء الخلق ؛ وأن البرة — الخلخال ونحوه من الحلى — صيغت من الكعبرة — واحدة الكعابر وهو شىء يخرج فى العضاه . وكل عقدة صغيرة مثل الجوزة ونحوها فهى كعبرة ، وكعابر الرأس عقده — وأن حضنا — جبل بنجد — غار ، وتهامة أتت جحرا — وهى قصبة اليمامة — فقد كذب القائلون ، إنما ينزل من السماء غريض الماء ، وتعنو الأرض بالنبات الغض ، وتجود السمرة — شجرة ترعاها الابل — بمر الثمرة ، ولا تنتقل تهامة أبدا ، ولا يوجد حضن إلا منجدا . فاستغفر الله »

فهو كما قرأت يكذب القائلين باخلاف الطبيعة وتغير أوضاعها ، لكنك تلمح فى صدر الكلام ، هذا الاستعداد الذى أشرنا إليه ، إذ يقول : «الشىء كما فطر ، حتى يأذن خالقه بالتغيير ، فيجعل للثبات غاية ، هى الاذن الإلهى بالتغيير .

ومثل ذلك قوله فى احتياط[٢] — «أن رضوى لايخاف أبدا من ضوى — صغر الجسم — حتى يأذن رب الجبال »فبقاء جبل رضوى على حاله مرهون بإذن رب الجبال ! ! وبذلك ومثله تحس اهتزاز يقين صاحبنا بتلك

---

(١) ص ٢٣٩ .

(٢) الفصول ص ١٦٠

السنن ، وسببية الأسباب ، فإذا ما مضيت تقرأة وجدته ينفى السببية فى قوة حين يقول :

وقد يأمر الله الكهام إذا نبا فيفرى ، وقد ينهى الحسام فيكهم

٢ : ٢٢١

ويقول :

لو ينطق السيف نادى ليس لى عمل إذا قضى مالك الأفلاك أنضانى
متى أراد ، فصفحاى اللذان هما بحرا الردى من حياض الموت حوضان
وإن كهمت فأمر الله أكهمنى وإن مضيت فأمر الله أمضانى

٢ : ٣١٦

فقوله هذا فى نداء السيف : ليس لى عمل ، وأن كهامه يفرى بأمر الله ، وأنه إن مضى فبأمر الله ، وإن كهم فبأمر الله ، كاف فى أنه ينفى بذلك الأسباب، نفيا لا هوادة فيه ، وأنه لا يرى لهذا الكون نواميس طبيعية ، وإنما هى القدرة الإلهية، والأمر الإلهى ... وأبو العلاء بسيفه هذا ، أمضى فى قول الدينيين وأبلغ ، فالرى ليس من الشرب ، ولا الشبع من الأكل ، ولا الموت من جز الرقبة ، ولا قطع بضرب الحسام ، لأنه قد ينهاه الله فيكهم . . وقد بعد الرجل عن ميدان الفلسفة بهذا التقرير بعدا تاما ، ومضى يمعن فى بعده هذا ، حتى لتحس إذا تابعت قراءته ، أن هذا الذى فلسفوه حقا ، يسلط القدرة الإلهية ، والمشيئة الربانية على الكون وشئونه ، ويعرض من ذلك ، لما يلتحق بالمعجزات طورا ، وبالكرامات تارة ، ويأمل تحقق ذلك من

غير طرائقه ومعتاد أمره ، تارة لنفسه التي يبدو حبها للحياة والقوة ، فى مثل ما قرأت،أول هذا البحث ، وحينا يأمل هذه الخوارق لغيره ، أو يمجد الله بقدرته المطلقة ومشيئته النافذة ، فى إمكان تحقيقها قائلا : لو شاء ربنا . وهو القادر ، لا يعجزه شيء .

ثم هو فيما يورده من ذلك ، تجرى على لسانه عبارات واصطلاحات تتصل بمقررات لأصحاب علم الكلام الأسلامى ، أو أصحاب الفلسفة العامة ، فتكون حينا وفق ما قرروها ، وحينا غير ما عرف عنهم ؛ ولهذا كله سبب قوى ، من عوالم الشيخ النفسية — أو مما يكشفه الدرس غير ذلك — وفى كل حال لا يحسن أن نعرض لصنيعه فى حديث القدرة والمشيئة ، قبل أن نذكر القارىء بالمهم من هذه الاصطلاحات ، ليقضى برأيه فى صنيع أبى العلاء عن بينة ، ويرى رأيه فى مكانه بين الفلسفة والدين على أساس صحيح .

* * *

فأصحاب الكلام يذكرون المستحيل ويريدون به ما لا يمكن وجوده بل يستحيل وجوده فى الخارج ، لأنه إذا تصورت ذاته مجردة من كل اعتبار لم تكن إلا مستحيلة الوجود ، بحكم العقل القاطع لا بحكم العادة .. فالذهن لا يستطيع أن يتصور له ماهية كائنة ، والعدم من لوازم ماهيته .. وذلك هو المستحيل العقلى كاجتماع النقيضين الوجود والعدم ، فإن الذهن لا يستطيع أن يتصور كون الشيء موجودا وغير موجود فى آن واحد . وكخلو الجرم عن الحركة والسكون معا ، فإن العقل يجزم فى مثل هذين بعدم تحقق احدهما لذاته، إذ لا يمكنه تصوره . .

وإذا كان هذا هو المستحيل العقلى . الذى انتفى فيه الوجود . واستحال التحقق بحكم العقل القاطع فهناك مستحيل سموه : المستحيل العادى . تحكم بعدم وجوده فى الخارج العادة والألف . وما عهده الناس من شئون الكون لكن العقل يتصوره ويجده ممكنا ، وله بهذا وجود دهنى ، لا خارجى ، ثم قد يكون له هذا الوجود الخارجى فى حال خاصة من تقدم علم الناس بقوانين الكون . ومعرفتهم قانونا جديدا ، مما يسير عليه الوجود كما قد يوجد فى الخارج بمعجزة كان يمكن أن تجرى فى عصر المعجزات ، على يد أحد المرسلين (١) . ومثال ذلك المستحيل العادى الذى لا يمكن عادة وجوده . وإن أمكن عقـــلا وجوده . مشى الانسان على الماء . أو طيرانه فى الهواء وصعوده السماء . وما إلى ذلك ،مما تحقق بالمعجزة فيما مضى ، ويتحقق اليوم بالأجهزة أو بتقدم معرفة الناس بالنواميس . فهو قبل هذا لا يقبل الوجود عادة،وفيما عهد الناس من الوجود وعرفوا من قوانينه . ثم يصبح ممكنا واقعا كالطيران . وسماع من فى أقصى الأرض ، وما إلى ذلك ، مما علم الناس بعد تقدمهم، أنه من سنن الكون ونظم الوجود . . فالمستحيل الأول العقلى . هو مخالفة النواميس الفطرية النظرية .. أى الخاصة بما لا يتوقف على المادة فى تصوره كالمنطقيات والرياضيات ... والمستحيل الثانى أى العادى . هو مخالفة النواميس الطبيعية الواقعية العملية ، أى الخاصة بما يتوقف تصوره على المادة كالطبيعيات وما اليها ، ويزيد هذا بيانا،أن أذكرك بتقسيم القدماء للعلوم :

---

(١) والمعجزة ليست من المستحيل العقلى، بل هى من المستحيل العادى ، فيما يقرره المتكلمون أنفسهم ومن أقرب ما يقرؤه فى ذلك رسالة التوحيد للاستاذ الامام ص ٨٤ ط سابعه .

إلى ما يتوقف على المادة فى تصوره ووجوده ، وهو العلم الطبيعى . وما لا يتوقف على المادة فى تصوره ، وإن احتاج اليها فى وجوده ، وهو العلم الرياضى .. وما لا يتوقف على المادة لا فى تصوره ولا فى وجوده، وهو العلم الآلهى .... وقد كان هذا التقسيم مما نظن أبا العلاء قد قرأه أو حفظه فيما ألم به من التحصيل الفلسفى . كما نرجح أنه عرف من قول الكلاميين هذين المستحيلين: العقلى والعادى .. وسنرى تناوله الفنى لهذه المعانى . واين يقع من الصواب فيها ؟

وإذا أشرنا مضطرين إلى هذه المقررات الفلسفية والكلامية لإكثار صاحبنا من التعرض من التعرض لها ، تعرضا يحتاج إلى الرأى، فأننا نستطيع أن نلم بعد ذلك بقدر من أقواله فى هذا الشأن ، ولعل أكثرها مما أشار إليه فى تسبيحه الله وتمجيده ، بما كتب فى الفصول والغايات ، إذ العالم النفسى المسيطر عليه دينى واضح

وقد أشرت إلى أن أبا العلاء يذكر تمكن هذه القدرة من تحقيق أشياء تمناها لنفسه ، وفيها الأدلة على خوالجه ، كما لا يستبعد على مشيئة الله أن تجعله فى حال خير من حاله، فيقول [١] «..الملك لك، غالب الغالبين ، لو شئت لجعلتنى راعى فِرق [٢] أرقب ثرته [٣] والعزوز [٤] ، وأمين الشطور [٥] والثلوث [٦]

---

(١) الفصول والغايات ص ٦٧

(٢) القطيع العظيم من الغنم

(٣) الواسعة مجارى اللبن

(٤) الضيقة المجارى

(٥) التى عطب أحد شطريها، والشطر الضرع

(٦) هى الناقة التى عطب ثلاثة من أخلافها

أو صاحب هجمة (١) أتلكد (٢) بها أنوف (٣) الكلأ : همّى فى المنغرة (٤) والمخزاب (٥) . . . ويبدو فى الصيغة روح التمنى ، لا تقرير أن ذلك فى متناول قدرة الله فحسب .. ومثل ذلك قوله (٦) : « الحوجّ على ذات عوج ، وهى على سواى سهلة كالأنفاس ، ولو شاء الخالق جعلنى مثل الناس . . » .. وما ابتغاه من الثروة والقوة والاضطلاع بأعمال الأقوياء الأصحاء ، مهما يكن قريب التحقق أو بعيده ، فأنه أمنية من يطمع فى تغير واقع الكون ؛ حتى يبصر ويفعل ويفعل .. على أن الرجل يبعد فى ذلك ويكثر ، فيقرر اقتدار الله على تحقيق أشياء ، لعلها لو تحققت لناله منها أيضا خير كثير كقوله (٧) : —

ربنا
« يقدر ربنا أن يجعل الانسان ينظر بقدمه ، ويسمع الأصوات بيده ؛ وتكون بنانه مجرى دمعه ، ويجد الطعم بأذنه ، ويشم الرائحة بمنكبه ، ويمشى إلى الغرض على هامته ؛ وأن يقرن بين النير وسنير (٨) حتى يريا كفرسى

---

(١) الهجمة من الابل أولها أربعون إلى ما زادت ، أو ما بين السبعين إلى المائة أو إلى دونها

(٢) أتتبع

(٣) أنف الكلأ أوله

(٤) المنغرة والممغرة بالميم أيضا : التى يخرج فى لبنها حمرة نحو الدم

(٥) التى أصاب ضرعها الخزب وهو داء تضيق منه أحاليل الضرع ويرم

(٦) الفصول والغايات ص ٢٧١

(٧) المصدر السابق ص ٣١

(٨) النير جبل بأعلى نجد ، وسنير جبل بين حمص وبعلبك

رهان ، وينزل الوعل الزعل[١] من النيق[٢]، ومجاوره السوذنيق[٣]، حتى يشدفيه الغرض ، وتكرب عليه الأرض،وذلك من القدرة يسير سبحانك ملك الملوك وعظيم العظماء » . . وتسمع فى هذه القطعة الأخيرة مع تغيير القوى ،ونظام التكوين الإنسانى ، تقريب البعيد من الأرض ، ومجاورة القاصى للدانى ،وقد أكثر الشيخ من هذا ، مقررا قدرة الله ، على تغيير ماجرى عليه الأمر من شأن السماء والأرض والكواكب وغيرها ينقلها من أماكنها ؛ أو يجريها فى غير ما أجريت فيه ونحو هذا ، مما تقرأه فى مثل صفحات : ٢٦٤ ، ٣٦٤ وسواها . من الفصول والغايات . . كما أورد من ذلك ، ماهو من صنف ماعرف ، من معجزات للرسل كقوله . «[٤] أن الله إذا أذن ، روى الشعب من القعب »

وأمانى الشيخ لنفسه، أو لغيره . وإخضاعه مختلف الكائنات لتغيير القدرة . وتوجيه المشيئة الإلهية مما يخالف ثبات السنن . ويدفع فى استقرارها ويهون من سببية الأسباب . ويؤخرها عن مسبباتها..فهو من مخالفة القانون الطبيعى العملى المعروف لعهده .ثم منه ما قد كشفت بعد قوانين طبيعية أخرى صيرته واقعا مألوفا لايلتحق بالمستحيل العادى . كما كان فى مألوف الشيخ وعصره ، حين قال : [٥]

---

(١) كمكتف المتضور جوعا
(٢) بالكسر أرفع موضع فى الجبل،جمعه نياق
(٣) السوذ نيق الصقر
(٤) الفصول ص ٢٢٧
(٥) المصدر السابق ص ٥٧

« إن شاء الملك قرب النازح وطواه . حتى يطوف الرجل في الليلة الدانية بياض الشفق ، من حمرة الفجر ، طوفه بالكعبة حول قاف . ثم يثوب إلى فراشه . والليلة ماهمت بالأسحار . ويسلم بمكة فيسمعه أخوه بالشام ويأخذ الجمرة من تهامة فيوقد بها ناره فى يبرين وقاصية الرمال ويجأز[1] بأكيلته فى قصور فرغان ، فيعتصر[2] بماء المضنونة أو جراب[3] »

وأكثر هذا الذى ذكره من الانتقال السريع . أو الاستماع من النائى أو الايقاد من بعيد ، قد تحقق اليوم عملا ، بعد ماكان الشيخ يعده من العجائب التى لاتنالها إلا قدرة الله .. ودعك من أن يكون أبو العلاء بهذه المقالة . قد استشرف لما كدت فى سبيله الانسانية فبلغته بعد أجيال طويلة حين كشفت نواميس فطرية مكنتها من هذا الانتقال الطائر : أو الاستماع العجيب . أو الايقاد النائى . دعك من اعتداد قول هذا شيئا لأبى العلاء . فان ذلك من التعلات الطفلة التى لاتليق بالشيخ ، ولا يحتسبها لنفسه لو بعث اليوم فرآها

. . .

والآن وقد شرحنا إلى حدما ، مسألة ما بين الدين والفلسفة . فى الأسباب والنواميس ، وقد أشرنا إلى ماتناول أصحاب الكلام والحكمة من اصطلاحات حول القوانين الطبيعية النظرية والعملية ومخالفتها . وسمعنا مقالات صاحبنا فيما يتصل بالأسباب والنواميس . وقدرة الله على تغيير قوانين الوجود العملية الآن أدركنا مايأتى :

---

(١) يجأز يغص ، والأكيلة اللقمة

(٢) يستغيث ، وهو من العصر بمعنى الملجأ

(٣) المضنونة من أسماء زمزم ، وجراب اسم موضع فيه ماء ،

ا — أن أبا العلاء لم يسلم فى هذه المسألة، وما اتصل بها من تناقضه المعروف

ب — أن أبا العلاء وإن ألم بثبات النواميس وسببية الأسباب لم يلبث أن أخل بالمنهج الفلسفى إخلالا واضحا. وجافى الروح الفلسفية مجافاة بينة. وأخلد إلى منهج ملى ينكره أصحاب الفلسفة قديما، وينكره متجددو الدينيين اليوم، لأنه يرفع الثقة بالمنطق والعقل، ويوسع الشقة الخلافية بين العلم والدين · على حين يبدو نفور القرآن منه · واطمئنانه إلى تحرير العقل. وتقرير النواميس بقوة. وتلك هى النتيجة التى قصدنا اليها فى هذا الفصل، وتكلفنا شرح ماشرحناه من مقررات دينية او فلسفية لأن الدوائر الجامعية [1] فى تفهمها لأبى العلاء. قد تعلقت بمسالة العقل والقدرة المعجزة. وأدارت حولها كثيرا من القول .. وما زلت من أجل هذا اوثر العناية بما بقى من جوانب المسالة فأتناول بالقول: ما ذكره أبو العلاء من أمر المستحيلات. ومن أى الانواع هى؟ اعقلية أم عادية؟ فلهذا الاهتمام اتابع القول فيها ثم لما وراء ذلك من فهم الشخصية العقلية لأبى العلاء فبهما يجلى وجه الراى الذى نطمئن اليه فى أمر صاحبنا

---

(١) من ذلك مافى رسالة: الحياة الانسانية عند أبى العلاء، وهى رسالة للماجستير كتبتها السيدة بنت الشاطىء، باشراف الدكتور طه حسين بك، وقد نشرت أخيرا، انظر ص ١٦ إلى ص ٢٤

أى المستحيلات ؟

لم يذكر أبو العلاء هذه الأمانى، وهاتيك المقدورات التى تنالها القوة الإلهية . وتستطيع أن تتجه إليها المشيئة الربانية ذكراً مجرداً عن الوصف بل نعتها أحياناً، بما تقف عنده لنرى صحته او فساده . ثم لنرى دلالته على حظ صاحبنا من الثقافة العقلية والمقررات الفلسفية

وهو يقول (١) فى هذا الصدد — .. ان سمعت ان الرقيع (٢) امطر جندلا وأبنت البقيع (٣) مندلا ، فقل اما : فى المعقول فلا وأما فى القدرة فبلى ... العادات باذن الله متغيرات» ... فهو كما تقرا يمنع هذين الأمرين فى المعقول فتخالهما بعبارته هذه من المستحيل العقلى .. على انه مالبث ان عقب بقوله العادات باذن الله متغيرات · فآذن قوله هذا، بأنهما من المستحيل العادى . . ثم تنظر انت وراء هـذا كلـه . فتجد ان إمطار السماء جندلا قد دعا به السكفار فى قول القرآن« وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم » ..وهذه هى السماء تقذف بشهب وصواعق هى من الحجارة وما إليها . فليس الأمر حتى من غير المعتاد.. فيعد مستحيلا عاديا..واما ان تنبت الأرض عودا مهما يكن حالها، او يكن فيهامن اصول الشجر،فذلك ليس ببعيد ايضا.فكيف جعلهما ابو العلاء من العادات المتغيرات بإذن الله ! ثم كيف جعلهما مما ليس فى المعقول . فقال . أما فى

---

(١) الفصول والغايات ص ١٠٩

(٢) السماء ، أو السماء الأولى ، والرقع السماء السابعة

(٣) الموضع فيه أوم الشجر من ضروب شتى ، والمندل العدول

المعقول فلا ..! أما انه لو قال . اما فى المعهود فلا ، لاتسقت هذه مع قوله . العادات بإذن الله متغيرات . . وإن لم يظهر لنا أن هذا من المستحيل العادى فليكن من غير المعتاد أى من غير المألوف مثلا . . وفى كل حال فعبارة صاحبنا ليست سليمة .

وتدع هذا الى قوله فى وصف القدرة الالهية ، فترى منه أولا ما يستقيم كقوله . ولا عجب من أمر الله ، ولمشيئة الله النفاذ [١] .. أو قوله رحمتك مكون المعجزات...أو قوله الله القادر على كل بعيد فانه لاباس به لكنك ترى إلى جانبه قوله لايعجزك ممتنع فى العقول [٢]...مع قوله [٣] « يقدر الله على المستحيلات - رد الفائت ، وجمع الجسمين فى مكان إذكان لا ينسب الى عجز ولا انتقاص ، فاذا مررت بعود بال ، فاعلم ان الله يستطيع ان يكسوه أحضر كخضرة الحسام ، حتى يورق ورقا كعدد الرمال » فتقرأ أن القدرة تنال الممتنع فى العقول ، ومالا تحتمله الألباب ؛ وبين هذين قوله يقدر الله على المستحيلات ، فتشعر أنه يريد المستحيلات العقلية ؛ ويجهر بتحكيم هذه القدرة فى هذه المستحيلات العقلية! [٤]..ولكن كيف والمتكلمون يقررون أن قدرة الله لاتتعلق بهذا المستحيل العقلى ، كما لاتتعلق بالواجب لأن ذلك المستحيل- كما عرفت قريبا -ممتنع فى العقل وجوده . ممتنع ثبوته ،

---

(١) الفصول والغايات ص ٢٧

(٢) الفصول والغايات ص ٤٧

(٣) المصدر السابق ص ١٤٧

(٤) وعد من المستحيلات رد الفائت ، زمنا أو شيئا . وذكر جمع الجسمين في مكان وهما كما ترى من القوانين الطبيعية العملية التى لا يحظر العقل مخالفتها بمن مستحيلات عادية .

ولا يقال أن الله قادر على كذا من المستحيلات عقلا وإلا كان عاجزا كما يقول الشيخ « إذ كان لاينسب إلى عجز ولا انتقاص ».. فقوله فى هذه المواضع خطأ عند الكلاميين الدينيين ، بعد ما استسلم اليهم ، ففى نفى الأسباب وتغير النواميس ، وكأن الشيخ بعدما أخل بأصول التفلسف ، قد أخل مع ذلك بمقررات التدين . . وما أحسبه إلا فى غمرة من النشوة الوجدانية ، فى عالم التقديس والتمجيد الذى ردد فيه تسبيحات الفصول والغايات ، قد اندفع اندفاع المتفنن ، لايرعى حرمة المصطلحات ، ولا يلتزم تدقيق المتفلسفين ، حتى ولو كانت فلسفتهم لاهوية دينية . !! ما أحسبه من الناحية النفسية إلا كذلك ومن هنا كان يذكر الممتنع فى العقول ، وما لا تحتمله الألباب ، ثم إذا به يقفى باخضرار العود البالى ، وليس ذلك مما يمتنع فى المعقول ، ولا مما تحتمله الألباب ؛ بل هو عادى قريب ، والشجر يخرج من الشتاء باليا ، بل محترقا فى البلاد التى يسقط فيها الجليد ، ثم إذا هو أخضر مزهر ومثمر فى الربيع .. !!

وكذلك يعطينا حديث أبى العلاء عن القدرة والمشيئة الآلهيتين ، الفكرة عن إخلاله بالمنهج الفلسفى . ثم يقدم لنا الشاهد على ضعف ثقافته الكلامية الأسلامية التى تتصل بالتفلسف اتصالا وثيقا .. ويرحم الله الشيخ فقد كان وجدانيا أكثر مما كان شيئا آخر ...

وإذ ألممنا بما خاضت فيه الدوائر الجامعية ، من حديث القدرة الآلهية والعقل الأنسانى ، وحررنا معانى ما ساقه أبو العلاء من قول فيه ، فمن الوفاء بالموضوع أن نسوق كلمة مجملة عن :

مسألة المعرفة والقدرة الآلهية

فنجيب عن السؤال التالى وهو : ـ هل حديث أبي العلاء ، عن العقل والقدرة، حديث يمس مسألة المعرفة ، ويتصل برأيه فى عجز العقل أو اقتداره حتى يعلل به اضطرابه فى مسألة المعرفة ...؟ .. وأنك لتجد من تفصيل مامضى وجملته، أن صاحبنا فيما قاله من هذا واعظ مستهو ، يمجد ويقدس ، وقد غمره عالم روحى دينى مسيطر . كما تجد أنه فيما أورده من قول عن العقل والقدرة ، لا يذكر من أمانيه لنفسه أو للناس ، ولا من مظاهر تصرف القدرة ، شيئا عقليا من مشكلات الحياة الأنسانية أو الكون ، بل يذكر من ذلك أشياء حسية مادية ،هى كما قلنا من القوانين الطبيعية العملية ، ومما يتوقف تصوره ووجوده معا، على المادة.. وليس هذا فى شيء من الصعوبة، ولا هو من عقد الآلهيات أو الرياضيات وما أليها .. ألم تر أنه فيما قرأت من أمثلة يتحدث عن الأرض والبقاع ، أو عن السماء والأفلاك والكواكب ، أو عن النبات والحيوان ومظاهر حياتهما ، أو الحواس الانسانية وأطوار الوجود..!! وأنه حين صرح بما يمتنع فى العقول ، وما لا تحتمله الألباب ، أنما مثل بالعود البالى وخضرته !!! ومن هنا نستطيع القول فى طمأنينة ، مجيبين عن السؤال السابق صدر هذا الكلام : ـ

أن حديث العقل والقدرة الالهية عند أبي العلاء ليس حديثا عن مسألة المعرفة ، ولا هو متصل باقتدار العقل البشرى عليها أو عجزه عنها ؛ وإنما هو حديث استهوائى وعظى ، تسبيحى تمجيدى ، قد دلنا مع النظر فيما اتصل به من إنكاره تأثير الأسباب ، على أن صاحبنا المتفنن قد أخل بالروح الفلسفية أخلالا قويا ؛ كما دلنا على أنه قليل الميل ألى الجو العقلى الحكمى ، قليل

الحظ من العناية بذلك كله، فلنمض الى ما كنا فيه من بيان سائر نواحى إخلاله بالمنهج الفلسفى، فنذكر لك وجها :

ثالثا : أنه حينما جادل نثرا وفى السعة، لم يفرق بين مواضع الدليل العقلى، ومواضع الدليل الشرعى، وقد لفته إلى هذا الأخلال داعى الدعاة (١) وكان الشأن فى المتفلسف، أن يعكس فيلتزم الدليل العقلى دائما، حتى فيما يكفى فيه الدليل الشرعى. لا أن يستدل لمعقوله بالشرعيات، ويخطىء مكان سوق الدليل . . !!

رابعا — أن أبا العلاء. قد رأيناه فيما مضى يترك الوفاء بالاستدلال لأفكاره كما هو شأن المتفلسفين.. ثم هانحن أولا نراه إذا ما استدل فى القليل من الأحيان، وهو يتحدث نائرا، فأنه يخل بالمنهج الفلسفى أخلالا واضحاً اذ يدعى أدراك الحيوان مثلا فيحتج بقول شعراء العرب بذلك، وأن مدافعة النحل لمن يشتار العسل مظهر هذا الأدراك ..وماهى ألا معان شعرية، وخواطر وجدانية، وملاحظ فنية، لاينتظمهاتحر ولا ينقحها تدقيق، ولن يحتج بمثلها على لمايزعم صاحبنا،أنه أنباء العقول الصحائح ..مع أن هذه النحل تلسع الصبى الوادع الجميل فى الروض، وهو غير مشتار ولا مبتغى عسل لما ثم قدر مع هذا أن أبا العلاء حين يورد مثل هذه الحجج،ويعدها أنباء العقول الصحائح،كان قد عاش بضعا وثمانين حجة، فتم نضجه؛ وكمل عقله، ولم يعد

---

١ — ياقوت، معجم الادباء ط هندية ح ١ : ٢١٣، وعبارة داعى الدعاة فى هذا هي : وهذا الكلام شرعى وكانت النصبة للعقليات . . إذ أنهم إنما كانوا يتناقشون بمناسبة بيت أبى العلاء : غدوت مريض العقل والدين فالقنى لتعلم أنباء العقول الصحائح ..وجاءه الداعى يلتمس عنده أنباء العقول الصحائح

يفوت مثل هذا على مثله ، لو كان متفلسفا ! ! !

خامسا : أنه فيما يعترض به على الألهيات أو التشريعات فى الاسلام والأديان الأخرى ، يتعلق بظواهر قريبة ، أو لمحات عاطفية صرفة ، حتى سهل على أشباه العلماء من مدونى أخباره ، أن يردوا على اعتراضاته هذه بسهولة ، وقسوة ، (٢) لأنه ينسى فيها أقرب الاعتبارات الاجتماعية أو العملية ، التى لا يصح أن تخفى على مفكر عادى ، بله متفلسف حكيم ...!!

والحديث عن إخلال صاحبنا بالمنهج الفلسفى ، يذكرنا بمـا لمحناه قريبا من قلة حظه فى الثقافة الكلامية — انظر ص ١٢٠ — ثم مانلمحه كذلك من الشواهد فى أمور كلامية وفقهية قد تناولها . ! ! فهو فى الكلاميات مثلا يتحدث عن مريد الشر ويجعله فاعلا له ، ولا يلتفت لما اشتهر من ذلك فى البيئـة الكلامية وكثر قول القوم فيه ، من التفريق بين أرادة الشىء والأمر به .

وهو فى الفقه يعد نفسه مجتهـدا ، ويرفض التقليد فى كثير من أقواله كقوله :

وينفر عقلى مغضبا ، أن تركته سدى ، واتبعت الشافعى ومالكا

٢ — ١٣٢

ولكنه فى نثره ، يعرض لقياس صيد الحل على صيد الحرم ، وغير ذلك من الفقة ، كقياسه ترك المباح من اللحم على صلاة مازاد عن المفروضة . . الخ فيخل بالمبادىء من أصول مثل هذا البحث الفقهى ، ويدل على عدم تضلع من الثقافة العقلية بعامة ؛ وليس هنا موضع القول المستوفى فى هـذه المسائل

---

١ — الصفدى ـ نكت الهميان ص ١٠٧ ـ وغيره من المراجع الادبية المشهورة

الـكلامية والفقهية ، وأنما يكفينا هذا الألمام لنقول : إنه ليس من الحق ، المبالغة فى تقدير قوة التعقل المنطقى لابى العلاء ، كما أنه ليس من الصواب عده متفلسفا ،

٨ ليكن أبو العلاء رجلا ملما بالأبحاث الفلسفية والمذاهب ، وليكن قد ضمن شعره هذه المذاهب والأبحاث،أو شيئا منها ، أو ليكن ابو العلاء حكيما ، كأولئك الحكماء الذين عرفهم العرب فى الجاهلية ، ورأوا فى أشعارهم ثمار تجارب ، وخلاصة فكر . وجمل حقائق عملية . . ليكن ابو العلاء شيئا من ذلك أو مايشبهه ، أما أن يكون فيلسوفا ، يتخذ البحث والتفكير العقلى عملا له ، ويعتمد فى ذلك على مقدرة منطقية عقلية فما أظن وما أظن . .! فليس على المنطق العقلى تعرض أقواله ، ويحكم بتناقصها ، ويلتمس لها التعليل

أنما أبو العلاء رجل وجدانى ، أديب ، متفنن ، أو هو واعظ وخطيب أحيانا كما سترى . . ، وكل أولئك مما يراض بمنطق الوجدان والعاطفة، لا بغيره من منطق العقل والفكر فلنسأل على ضوء هذا التقدير . م

لماذا تناقض أبو العلاء ؟

- ١ -

لماذا تناقض الأديب المتفنن فى نثره وشعره ، هذا التناقض الشامل ، الذى عم الدين والدنيا ، والأدب والعلم والفلسفة ، حينما يعرض لشى منها ؟ . أن للقدماء عند نظرهم فى الدينيات واضطراب الرجل فيها ، تعليلا أدنى الأصل والمرجع ، هو ماساقه الذهبى عن ابن سلفة أذ يقول : من عجيب رأى أبى العلاء ، تركه تناول كل مأكول ، لاتنبت الأرض ، شفقة يزعمه على الحيوانات ، حتى نسب الى التبرهم ، وأنه يرى رأى البراهمة ، فى أثبات الصانع ، وأنكار الرسل ، وتحريم الحيوانات ، وإيذائها ، حتى الحيات ، والعقارب ، ففى شعره مايدل على غير هذا المذهب ، وأن كان لايستقر به قرار ، ولا يبقى على قانون واحد ، بل يجرى مع القافية أذا حصلت ، كما تجىء لا كما يجب[1]

تعليل باندفاع الشاعر ومتابعة القافية ، دون تحرج ، وقد يكون لهذه المتابعة بعض التأثير ، وبخاصة أذا ضم أليها ميل أبى العلاء للصنعة اللفظية ، وأدارة المعنى على التحسين الفظى ، وصنعة البديع الشكلية . .

ولكن مثل هذا التعليل لا يكفى ولا يقنع ، بل هو أهون من أن يوقف عنده ، . . ذلك لأن الرجل يتناقض فى النثر كما يتناقض فى الشعر ، يناقض بعض نثره بعضا ، كما يناقض بعض شعره بعضا ، وكما يناقض

---

١ — الرسائل ص ١٣٤ ط اكسفورد

نثره شعره ، وليس هذا النثر بالقليل ، بل هو فيما وصل ألينا ، يضاهى شعره .. هل يعلل هذا كله بالخضوع للقافية ، أو الجريان معها أذا حصلت كما نجىء؟ ! أحسب أن هـذا تعليل لايصلح حتى فى متقابلات شعره وحدها ، لأن صاحبنا ليس بالذى تغلبه القافية أو تضيق به ، وهو الذى التزم مالايلزم ، ونظم الآلاف من الأبيات ، لم يتجل فيها ضيق النفس ، ولاقلق القافية . . ثم هو فى كل حال تعليل سطحى ، ممن يدرس رجلا كشاعرنا ، أقحم نفسه والفن فى كل شىء ، ثم هو فى الوقت نفسه تعليل لايستقيم فى متقابلات النثر ، وقد رأيتها فيما سقنا من الشواهد الوافرة المستوفاة ، تساوق متقابلات الشعر ، وتجىء معها فى كل موضوع . . فلا يمكن الوقوف عند هـذا التعليل ; بله الاكتفاء به ، فى درس متفنن كبير كأبى العلاء ، وإنه لتعليل يكشف عن سطحية الدراسة الأدبية ، وذهابها مع الظواهر المتبادرة القاصرة ، ذهابا لن تيسر لنا معه تفهم شىء من هذا الأدب ، تفهما جديرا بأهميته الفنية ، وقيمته الحيوية . وهو — كما قلت وأقول دائما — فهم الأدب والأديب فى الألفاظ والظواهر الخارجة التافهة الخادعة ، لافى الكيان النفسى ، والوجود الفنى ! !

— ٢ —

على أنا نجاوز هذا التعليل الذى يبدو أن القـدماء أرادوا به أن يخففوا التبعة فى الناحية الدينية ، أو أن يقولوا فيها شيئا ما يسكت الناقدين ، أويهون وقع ما أثر عن أبى العلاء فى هذا الجانب الدينى ، الذى تتأثر به النفوس فى ذلك العصر تأثرا قويا ، وتنتبه أليه اكثر مما تنتبه إلى غيره ، فتعنى به ، وتلتمس فيه المعاذير ؛ وفى هذه السبيل يفصلون الجانب الاعتقادى من حياة الانسان

عن سائر حياته النفسية، أو قل إنهم يفضلونه ويهتمون به أكثر من جوانب النفس الاخرى. على حين لا نرى نحن من الصواب فى شيء ما، الفصل بين حياة الأنسان الاعتقادية والفنية — أو الوجدانية بعامة — وحياته العقلية الفكرية؛ لأنهـا كلها من الناحيه النفسية متصلة متفاعلة . .

نجاوز هـذا التعليل الى تعليلات أخرى لم يذكرها القدماء فى المعرى بخاصة، بل ألموا بها فى أحاديثهم الادبية، فأشاروا إلى ظواهر من التقابل والتخالف أو من عدم الصدق والتحرى، فى أقوال الادباء . . انرى فى تعليلهم لها، ما قد يصلح وجها لتفسير تقابل آراء صاحبنا ولا عجب فى ان نلتمس مثل هذا من قول القدماء فى صنيـع الأدباء، لأن ابا العلاء — كما بدا ممـا قدمنا — ليس بالفيلسوف، الذى تفسر حيـاته وأقواله تفسيرا عمليا، عقلى المنطق، بل هو — فيما قـدرنا . أديب متفنن ينبغى أن تفسر ظواهر حياته بمنطق العاطفـة، ووحى الشعور أولا .. ثم هو فى كل حال قد خلف تراثا ادبيا واسعا عظيما، وفيه وجدنا هذه المقابلات تخفى من عده فيلسوفا لامندوحة له عن تقدير هذه الظاهرة الأدبيـة فيه، وهى فى كل حال، ممـا يسوغ لنا التماس اقوال الادباء، فى التناقض أو التقابل، لنعرض عليها حال صاحبنا، فلعلها تفسر ما بدا لنا من أمره فى تقرير الشيء وما يقابله، فنسوق هنا هذه الأسباب، وننظر فى كفايتها واقناعها لمن رام فهم ابى العلاء فمنهـا :—

١ — تتبع الأدباء للمعانى الأدبية، كلما كان مجال القول فيها ذاسعة، ولو لم يكن مايقولونه فيها حقا عندهم، أو رأيا لهم يلتزمونه، أو يدينون به والجاحظ وهو أمام فى الصناعة الأدبية يلحظ هذه الظاهرة، من حال الأدباء ويصفها حين يتحدث فى رسالة «المعلمين» عن قول الادباء، فيما يدركهم من حرفة

الأدب ، وشؤمه على أهله، حتى يأتوا من ذلك بما ليس صحيحاً ولا واقعاً ، ويقول الجاحظ فى تعليل عملهم : « أن قولهم هذا ليس صحيحا دائما، وليس الذى يحمل أكثر الناس على هذا القول إلا وجدان المعانى والألفاظ ، فانهم يكرهون أن يضيعوا باباً ، من إظهار الظرف وفضل الشأن وهم عليه قادرون »[1] . . هكذا يقول الجاحظ بيانا لهذه الحال ، من صنيع الأدباء ، وهو يبدو قريباً مماساقه الذهبي وأوردناه آنفا من جريان أبي العلاء مع القافية كما تجيء ، لأنه جريان مع المعنى كما يجيء ، ماداموا قادرين على القول فيه

وما نحيل أن أبا العلاء قد يتأثر بشيء من ذلك أو يقع فيه ، حين يعنى العناية الجادة بالألفاظ ونواحى تطابقها وتجانسها وما إلى ذلك ، من حسن لفظى ، وتزويق كلامى . فهو بلا مراء لغوى غنى ، يجد من مادته اللغوية وفراً من اللفظ ، ويدير المعانى كثيرا على ماتستجيب له الألفاظ، وتسعف عليه ، وليس يبعد أن يكون المعنى غير حقيق ولا واقعى، ولا هو فى مكان الرأى عنده ، ومنزلة المذهب،أو الفكرة ، التى تنفعل بها النفس انفعال التأثر أو الاقتناع . ولا نقول هذا من الأمر استنتاجا فحسب ، بل إنه هو نفسه قد تنبه إليه، وألم فى « الغفران » بشيء يتصل بما وصفه الجاحظ من صنيع الأدباء ، فى قولهم ما لا حقيقة له ، وسماه أبو العلاء « تحسين الكلام على مذهب الشعراء بما لم يفعل حقا(٢) ، وعلى أساس هذا ينكر فى الغفران تشيع ابن الرومى الذى يدعونه له، ويستشهدون عليه بشعره؛ حتى يقول مانصه :—

---

(١) رسائل الجاحظ ، على هامش الكامل للمبرد ، ط الطوبى — ١ : ٢٥

(٢) رسالة الغفران ط هندية ص ٣٩

« ما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء »[1].. بل هو يقرر فى موضع آخر، من هذه الرسالة نفسها، فكرة عامة عن عدم دلالة منطق اللسان على اعتقاد الانسان. ويقول: « ...إذا رجع إلى الحق فنطق اللسان لا ينبىء عن اعتقاد الانسان[2] ».

فليس بعيداً أن يكون أبو العلاء قد تأثر بهذا بعض التأثر، فقال ماليس صحيحاً فى نفسه، ولا واقعاً فى ذاته، أو قال مالا يراه ولا يعتقده ثم خالفه بقول ماهو واقع صحيح، أو ماهو رأى معتقد، فخالف لاحقه سابقه، وكلاهما ليس رأياً ولا اعتقاداً، مادام فيه المجال لتحسين الكلام كما يقول هو، أو مادام باباً توجد معانيه وألفاظه وهو عليه قادر كما يقول الجاحظ..!

ليس ذلك كله بعيداً عن أن يقع؛ أو لعله قد وقع فعلا فى آثار أبى العلاء ولكن هل يكفى وجهاً لتعليل الظاهرة، التى شهدناها واضحة من تقابل آرائه هذا مالا يسهل القول به فيما نرى، وليس من الصواب الوقوف عنده، ونسيان أو تناسى اعتبارات واضحة فى أقوال صاحبنا تفترق بها عن أقوال الأدباء الآخرين منها: —

---

(١) الرسالة نفسها ص ١٦١

(٢) الرسالة أيضا ص ١٣٤ .. ويعنينا هنا ان نشير إلى أن هذه الاعتبارات التى ذكرها الجاحظ وأبو العلاء، لا تؤثر فى دلالة الفن على نفسية صاحبه؛ بل نقرر أنها قد تكون أقوى دلالة، إذ تنم عن طوايا يخفيها القائل، فلا يكشفها إلا حرصه على إخفائها وقوله غيرها، إذ تخرج فيها الدلائل على ما يخفى.. وإذا كان نطق اللسان — كما يقول المعرى — لا ينبىء عن اعتقاد الانسان، أو لا يعطينا وجهته الاعتقادية، فانه ليعطينا دائماً حالته النفسية، التى دفعته إلى إخفاء شىء، وتكلف قول غيره تكلفاً دالا مفيداً فى فهم النفس.

أن هؤلاء الأدباء إنما يذهبون مع القول حين يتسع مجاله ، ويجدون ألفاظه ومعانيه ، فى أشياء يفيدون منها فوائد مادية ، وتجـــدى عليهم مغانم حيوية ، كشكوى حرفة الأدب وشؤمه ، لتدر عليهم العطايا ، وصاحبنا لم تتقابل آراؤه فى مثل هذه السبيل ،ولا هو قد حرص على شىء منه، أو جعل فنه وسيلة إليه ، وما إكبارنا له اليوم إلا لأشياء ،من خيرها هذا المعنى

ومنها:ـ أن هؤلاء الأدباء جميعا ، أى كثرتهم الغالبة ، لم يتناولوا فى أدبهم ماتناول أبو العـــلا. من شئون الكون والحياة الإنسانية، يتأملها ويسجل خواطره فيها . بل تناولوا عبرهذا كله من المدح والرثاء والهجاء وماإلى ذلك من استخدام عملى للفن ، فهم فيما يلمون به من هذه الفنون منصرفو النفوس عن الانفعال،أو الاعتقاد لما يقولون أو اعتباره رأياً،أو مذهباً،أو شيئا يشبه هذا من قريب أو بعيد .. على حين لم يتناول أبو العلاء غالباً — إلا أموراً بعيدة أكبر البعد عن هـذه الأجواء ، والنفس بفطرتها منفعلة بها ، مهتمة بتعرفها ، متطلعة بغريزتها إلى تبينها ؛ ومثل هذا مما لا يكون الذهاب فيه مع المعانى الموجودة والألفاظ الميسرة ، إلا ذهاباً قليـل الأثر إن وجد ، يسير الخطر إن تحقق ..

ومنها :ـ أن هؤلاء الأدباء أيضاً ، لم يذهبوا مع الألفاظ الموجودة، والمعانى الميسورة، فى الحديث عن مقررات ،هى عقائد مقدسة ، أومسلمات سماوية ، قدقتل الناس بإنكارها بل بالاقتراب،أومحاولة القرب منها بما يمكن ان يؤول على أنه مساس بها ، وصاحبنا إنما مس تلك المقدسات ،وعرض لتلك المقررات وتقابلت فيها أقواله ، وجهرت بالمخالفة فيها آثاره ، فلن يكون جريانه فيها مع القول الميسور ، والمعنى الموجود،إنما هو الاندفاع القوى عن تأثر نفسى،ينسيه

التحوط، ويضيع عليه الحذر ، ويصرفه عن المداورة .. !

فكذلك ليس من الحق ، أن نعلل أو نفسر، تقابل آراء أبي العلاء بمثل هذه العادات الأدبية، التي يتسمح بها الأدباء في أشياء غير ما وجه صاحبنا إليه فنه، من مشكلات ومعتقدات ، لها حرمتها ، ولها أهميتها ..

* * *

ومن الأسباب العـــامة التي ألم بها الأقدمون ، واصفين أو مفسرين تقابل أقوال الأدباء : —

٢ — ماساد في بعض العصور ، بتأثير عوامل دينية أو اجتماعية مختلفة جعلت المتأدبين يحرصون على كسب المقدرة الكلامية ، واللباقة الاستهوائية بحيث يحتج الأديب للشيء وضده ، ويحسن الشيء حيناو يقبحه حينا ، فتكون له الأقوال المتقابلة بل المتنافرة ، ومن هـذا ماجاءنا من قولهم ، في المحاسن والإضداد ، أو المحاسن والمساويء ، كالكتاب المنسوب الى الجاحظ، بالعنوان الأول ،وكتاب البيهقي - ق ٥ هـ - بالعنوان الثاني ،وكلاهما مطبوع متداول

وهي ظاهرة أدبية ، عرضت لها في بحثي « منهج تفكير الجاحظ »(١) فبينت لم كان الأدباء لا يعدون مثل هذا كذبا ؟ وكيف أثر هذا على نظرهم في تعريف الصدق والكذب ، الذى تعرضت له الكتب البلاغية ، تأثراً بهذه الصناعة الأدبيـــة ، ومروجاتها المختلفة إذ ذاك ، كما يبينه البحث في تاريخ البلاغة العربية

---

(١) بحث ألقيت خلاصته في أسبوع الجاحظ الذى نظمته كلية الاداب بجامعة فؤاد الاول بالجمعية الجغرافية الملكية ، ونشرت خلاصته السياسة الاسبوعية

وإذا ما أشرنا هنا إلى هـــذه المقدرة الأدبية على الاستهواء، واللباقة لخطابية فى التأثير، شعرنا ونحن نتفهم أبا العـلاء بضرورة الوقوف لحظة، والتمهل حينا، لنحدق فى جانب من شخصية صاحبنا هو:

شخصية أبى العلاء الواعظ

إذ تبدو للناظر فى آثاره التى جاءتنا، أو التى سيق إلينا خـبرها ووصفها ـ وإن لم نرها ـ شخصية خطابية، قد عنيت بالخطابة الدينية والواعظة المستهوية، بل كادت عنايتها بهذه الناحية من الخطابة الدينية، تستأثر بالثـار الأدبية كلها لفن أبى العلاء، وليس عجيباً أن نتحدث عن شخصية الواعظ، فى رجل قد اتهم فى دينه، وجرت كلمات الأجيال المختلفة فيه بلون ما من هذا الاتهام؛ وشغل الناس من نفسه، بتلك الناحية دون غيرها، أو أكثر من غيرها، ليس عجيباً أن نتحدث عن شخصية الواعظ فى رجل هذا شأنه، لأن مادة هذا الحديث، وعناصر تلك الحقيقة فى أيدينا، مهما يهمل القدماء أو المحدثون التعرض لها. فهذا أبو العلاء يقول عن نفسه فى التأليف: اجتهدت على أن أتوفر على تسبيح الله وتمجيده إلى أن اضطرر إلى غير ذلك فأمليت أشياء[1].. فكان التأليف المحبب له، أو الذى اختار أن يقف قلمه عليه، هو التسبيح والتمجيد لله، وهو مادعوناه وعظا أو خطابة دينيـة لا لهذا القول فحسب بل لأن جريدة كتبه، كما ساقها المؤرخون ووصفوها، تفسر مايعنيه بالتسبيح والتمجيد. فكتاب الفصول والغايات، وهو ـ كما وصفوا ـ سبعة أجزاء فى مائة (١٠٠) كراسة إنما هو فى المواعظ.. وفى القدر الذى نشر منه مثل

(١) ياقوت ـ معجم الادباء ١ : ١٨٠ ـ ط أولى

صادق لهذا الوعظ الاستهوائى، الذى أشرنا آنفا، إلى أن أبا العلاء يفقد فيه سمة الباحث والمفكر ، ويلبس رداء الوعاظ ، فيصدر عنه ماسمعنا من حديث عن قدرة الله ، ذلك الحديث الذى ينفى فيه الأسباب ، ويجيز للقدرة تناول المستحيلات ، ويضطرب تقديره للمستحيلات، العقلية والعملية على ما أشرنا إليه فى موضعه ـ أنظر ص ١١٤ ومابعدها ـ . . وكتابه الذى يسمونه «الأيك والغصون» ويذكرون أنه اثنان وتسعون جزءاً ـ وقد يزيدونه على ذلك ـ فى الف ومائتى كراسة (١٢٠٠)، إنما هو فى العظات وذم الدنيا . وكتاب «تضمين الآى» فى أربعمائة (٤٠٠) كراسة، إنما السبب فى تأليفه أن بعض الأمراء سأله أن يؤلف كتابا برسمه ، ولم يؤثر أن يؤلف فى غير العظات ، والحث على تقوى الله ، فأملى هذا الكتاب . . وكتابه سيف الخطبة ، إنما هو ديواز خطب منبرية . يشتمل على خطب السنة ، وفيه خطب للجمع، والعيدين، والخسوف والكسوف والاستسقاء . . إلخ ، وهو جزءان، فى أربعين (٤٠) كراسة . . وكتابه «تاج الحرة» فى عظات النساء خاصة ، نحو أربعمائة كراسة (٤٠٠) ؛ كما ذكروا له فى ذلك ، كتاب «رقعة الواعظ» . وكتاب «سجع الحمائم» . . تكلم فية على ألسن الحمائم فى العظة ؛ وهو أربعة أجزاء فى ثلاثين كراسة (٣٠) . وكتابه «المواعظ الست» . نحو خمس عشرة كراسة (١٥)، «وكتابه السجعات العشر» على كل حرف من المعجم عشر سجعات . كما أن له رسالة على لسان ملك الموت(١) . ونحو ذلك من آثار خطابية وعظية الروح . وهى مع أقواله فى التأليف ، مما يكفى للحكم بأن له شخصية واعظة ، قد عنيت بالخطابة الدينية

(١) الحديث عن هذه المؤلفات ووصفها معتمد على مافى معجم الادباء لياقوت ١ : ١٨٠ ـ ١٢٩ ط أولى

عناية؛لايقبل من الباحث إهمال دلالتها على خصائص فى فن الرجل وأدبه . حين ننظر — كما هو المنهج السديد — فى هذا الفن وذلك الأدب . على أنه وحدة متماسكة ، وكل متصل الجوانب . .

* * *

فأبو العلاء . قد عنى بالخطابة الدينية هذه العناية الواضحة ؛ وهى إنما تقوم على المقدرة الاستهوائية، والبراعة الخلابة، التى تستطيع تزيين الشىء والتحبيب فيه ، وتقبيحه والتنفير منه . وهو ضرب من القول فى المحاسن والأضداد أو المحاسن والمساوىء ، الذى عرضنا لذكره ، كى نعرض عليه تقابل آراء أبى العلاء ، ونلتمس فيه تعليلا كافيا لها ، ومن أجله أشرنا تلك الإشارة العارضة إلى شخصية الواعظ فى صاحبنا . . وليس بعيداً أن تكون معاناة هذا الأدب الخطابى، بعد اتجاه نفس الرجل إليه ، واجتهاده فى قصر نفسه عليه مالم يضطر إلى غيره اضطرارا ، ليس بعيداً أن يكون ذلك كله سببا الشىء من القول المتقابل، أو المتغاير، الذى نجد فى ثبت المؤلفات نفسه شاهداً عليه ، إن نسينا ماسبق من شواهد هذا التقابل على كثرته . وما نجده من التقابل فى ثبت المؤلفات هو ما ذكروه فى جريدة تلك المؤلفات، من أن أبا العلاء ألف كتابا اسمه « شرف السيف » لرجل بدمشق ، كان يوجه إليه بالسلام ، ويحفى المسألة عنه ، فأراد جزاءه على مافعل ، فألف له هذا الكتاب . .

وهل تراه قال فى شرف السيف ماهو من وادى تلك العظات المسبحات لله الممجدا له ، الزاهدة فى الدنيا المنفرة منها ، المرغبة فى الآخرة الداعية إليها على نحو مانراه — على الأقل — فى كتابه الفصول والغايات؟؟ لابد أنه لم يقل

فى شرف السيف إلا مايختلف عن تلك النزعة الواعظة،والروح المستضعفة ، وكذلك نجد حتى فى مؤلفاته شواهد هذا الاختلاف والتقابل،الذى يشبه القول فى حسن الشيء وقبحه ، على نحو ما عرف من هذا الصنف فى الكلام...!!

ولعلنا لانبعد أبداً إذا ماقلنا أن هذه الروح الخطابية ، متصلة الأثر بالشعر العلائى فى الموت وفناء الدنيا وكراهتها ، والحط من شأنها ، وتزهيد الناس فيها . ولوم الناس وذمهم ، ذلك اللوم القاذف الساب ،الذى ظللنا نسمع الكثير منه فى الخطب المنبرية لعهد قريب ، لما يتغير تماما فى بعض جهات مصر بعد . ودارس أبى العلاء يجد ريح هذا فى اللزوميات غير قليل . ويستطيع القول بأنه أثر لتلك الشخصية الواعظة فيه

على إنا حين نصل بين النثر الواعظ والشعر الزاهد للرجل ، ونربط بين الخطيب الواعظ فيه ، والشاعر الناقد ، ونقدر أثر الطابع الخطابى فى ذلك كله وندخله تحت باب القول فى المحاسن والاضداد من صناعة الأدب ، دون أن يكون ذلك كذبا عندهم ،أو تصويراً لاعتقادهم .. إلخ ، حين نفعل ذلك كله نسأل بعده : أتكفى هذه الاعتبارات لتعليل تقابل أقوال أبى العلاء ذلك التقابل الذى وصفناه ؟

وقبل أن نجيب القارىء عن هذا السؤال،أوقبل أن يتجه هو للإجابة عنه ، نضع أمامه معانى يجدر به تقديرها،قبل هذه الإجابة ، منها : أن هذا الباب من القول فى المحاسن والاضداد، لايبعد كثيراً عما قبله ، بل هو من واديه ، فى تحسين الكلام وإظهار للمقدرة القولية فى القائل ، دون أن يعد ذلك القول

منه رأيا أو عقيدة ، بل دون أن يظن ذلك فيه ، وأبو العلاء لم يؤلف كتبه النثرية، أو الشعرية لمثل هـذا الغرض من المرانة القولية ، أولتقديم المادة الأدبية لطلابها ، على نحو مافعل الجاحظ مثلا فى كتاب المحاسن والاضداد أو فعل غيره بعده .

ومنها: أن أبا العلاء كان جاداً فيما يعرض له من تحسين أو تقبيح ، بل كان جده يبدو فى ألم وسخط، أو تحرق وغيظ ، أو تمرن وتوسل ، ينم على ان صاحبنا لايقول مثل هذه الأقوال ، بيانا للمقدرة الأدبية والقوة البيانية فحسب ، وإن كان يستعمل فى ذلك ثروته اللغوية ، ومادته الأدبية، من رواية وحفظ ، بل إنه إنما يتخذ تلك المقدرة وسيلة للتقبيح أو التحسين، عن شعور أو بعبارة أدق ، إنما يتخذ ذخيرته اللغوية ، وثقافته الأدبية ، وسيلة للتعبير الدقيق عن خواطر نفسية وتأملات فنية ، وخلجات داخلية ، كانت تزخر بها نفسه ويجيش بها صدره ، دون أن يعرض لما يعلنه أولئك الأدباء من تناول الشيء وضده ، تفننا أدبيا، ومرانة قلمية لا غير (١) .

ومنها: أن أصحاب هذه الصنعة ، فى المحاسن والمساوىء، إنما يعرضون لأشياء من مألوف الحياة وحطام الدنيا . كمحاسن الجوارى وضد ذلك . ومحاسن الوصائف والمغنيات ، ومحاسن الهدايا وضد ذلك . ومحاسن فلان وفلان.. إلى مقابح ومفاسق أخرى من لذائذ الحياة وضد ذلك . على نحو

---

(١) نحب صونا هنا لسلامة الفكرة النفسية، فى فهم الادب أن ننبه القارىء إلى أن هذه الكتابة فى المحاسن والأضداد ، حتى عند ما تكون للرياضة الادبية ، لاتتجرد من الدلالة على نفسية الكاتب من بعيد أو قريب ، بل هى تظل سبيلا لتلك الدلالة لا يصح نسيانها.. وبيان هذا مما اتولاه فى غير ذلك المقام

ماتراه فى كتبهم ، وأبو العلاء أنما يعنى بغير ذلك من مشكلات الوجود والحياة ، على ما أشرنا إليه فى النوع السابق من تحسين الكلام

فأذا ماكانت هذه الجرأة الأدبية فى صنعة الخطابة ، قد أثرت فى فن أبى العلاء ، فأن هذه المقدرة لاتكفى سببا لتعليل تقابل اقواله ،فيما تقابلت فيه من دقيق جليل وهام عظيم ، ليس مما يعنى الأدباء به ، ويكدون له فى أدبهم وفهم . .

وإذا كانت النزعة النفسية للتسبيح والوعظ قد أثرت فى شعر الزهد وذم الدنيا،ولوم الناس من اللزوميات ، فأن غير ذلك من حركات النفس قد أثر فى حب الدنيا ، وتمجيد القوة ، ونسيان الزهد ، فى ذلك الشعر والنثر، الذى رأينا شواهده آنفا فيما سبق من الصورة غير المتعارفة لأبى العلاء

ومن كل أولئك لايسهل على الباحث ،أن يجد فى تلك الأسباب التى أشار أليها الأدباء ، فى تقابل الآراء،مايفسر صنيع أبى العلاء ، الذى جرى فى غير مجراهم ، وعرض لغير ماعرضو له، بروح غير روحهم، وتناول مخالف لتناولهم ولن يكفى بعض تلك الاسباب مفردا ، ولا تكفى تلك الأسباب كلها مجتمعة ، تعليلا لتلك الظاهرة، التى شملت فن الرجل، وسادت فيه سيادة واضحة ، ووجب أذن على الدارس الدقيق أن يلتمس سببا وراء ذلك كله ، وهذا ما وجدنا أن اهدى السبيل أليه،هو الاستعانة بالنفسيات ، والوصل بين الأديب وأدبه ، والاستعانة بشخصيته وماعرف من حالها، فى فهمه وتذوق فنه وفهم ما غمض أو استبهم منه . وذلكم هو الدرس النفسى،الذى طمعنا فى أن نقدم منه مثالا فى فهم أبى العلاء . . على أنا حفظا لما بين المعانى من التداعى ، واستيفاء للفكرة،عن هذا التقابل، فى آراء الرجل ، نسوق كلمة عن :

تناقض ابى العلاء عند المحدثين (١)

وتستطيع الاطمئنان ألى أنهم لم يولوا هذه المسألة عناية كافية بل أهملوها وهونوا من شأنها ، لأنهم جميعا — فيما أعرف — يفلسفون الرجل ، ويعجبهم من تفلسفه، هذا الاهتمام بالمظاهر العملية للانسان فى حياته الخاصة، ويقدرون : أن مايتصل بالدين من شعر أبى العلاء ليس شيئا بالقياس إلى الفلسفة العلائية، التى تناولت أطراف العلم الأنسانى ، وبحثت عن المظاهر العملية للانسان فى حياته الخاصة [٢] . وبعد أن يفلسفوه ويحققوا فيه معنى الفيلسوف ، وهو الباحث الملائم بين حياته وعمله — على ماناقشناه سابقا ، فى ص — يبحثون عن الاصل النظرى له ، ويقررون فيه مايقررون — مما ناقشناه أولا فى بحثنا عن مسألة المعرفة عنده - ص ٩٩ الى ص ١٠٣ - فينتهون ألى تقرير انه : مهما يكن من شىء فأن لأبى العلاء آراء ثابتة ، قد استقر عليها حياته كلها ، لم ينكرها ولم يشك فيها [٣] ؛ فهم بذلك كله يكبرون عنايته بالمظاهر العملية للانسان فى حياته ، بعد تقرير موافقة عمله فى الحياة لبحثه الفلسفى ، ويرون له بعد ذلك آراء ثابتة ، لعلها لاتكون عندهم أكثر ماتكون وأثبت ماتكون إلا فى المظاهر العملية للانسان فى حياته ، أذ تقضى بها

---

(١) من أظرف ماقرأت فى ذلك حديثا، مانشر فى مجلة الاديب — عدد أيلول ١٩٤٤ ص ٦١ — ان الاستاذ عبد الله العلايلى قال لهم : اتى عن شدة الحاجى بان أقع على موضع تناقض فيه أبو العلاء فلم اعثر إلا بوحدة فكر وانسجام رأى . ولعل الاستاذ يرجع إلى ماسبق من أقوال لابى العلاء متقابلة اول هذا البحث .

٢ — الدكتور طه حسين بك ـ ذكرى أبى العلاء ط أولى ص ٣٢٧

٣ — المصدر السابق ص ٣٤٥

ضرورة مطابقة سلوك الفيلسوف لأصوله الفلسفية ، ويزيد ذلك عند أبى العلاء ، ماله من عناية خاصة بتلك المظاهر العملية للانسان فى حياته ـ على مايقولون ـ والقارىء يذكر أنا لم نختر من فلسفة أبى العلاء التى لم يثبت فيها على رأى ، والتى تتقابل فيها آراؤه ذلك التقابل الجلى الواضح ، لم نختر شاهدا لذلك التقابل ألا هاتيك المظاهر العملية للانسان فى حياته الخاصة ، ومع مجتمعه الصغير وهو الأسرة، ومجتمعه الكبير وهو الأمة ـ على مامر فى الصفحات من ١٠ ألى ٨٩ ـ

ومن كل أولئك يتضح ما نشير أليه ، من أهمال المحدثين لهذا التناقض فى آراء الرجل ، أو ما آثرنا أخيرا أن نعبر عنه بكلمة التقابل ، تاركين التناقض والنقيض ، للجو الفلسفى، جو هذه الاصطلاحات ، إذ ارتحنا ألى أن صاحبنا ليس فيلسوفا

على أن من المحدثين من التفت ألى هذا التقابل التفاتا يسيرا كالاستاذ الميمنى ، وقد ذكر فى ذلك كلمة عن وجود جانبين لشىء واحد ، تكون له حالة خاصة بكل واحد منهما ، وأن هذا سبب ماتناقض فيه قول أبى العلاء ، وناقشنا هذه الكلمة ، وبينا عدم وضوحها ، وعدم صلاحيتها لشىء من التعليل ، وأن الفكرة التى فيها ليست مما يقرره أبو العلاء ، بأطلاقه القول فى الشىء الواحد ـ انظر هامش ص ٩٨

ولعله منذ كثر القول فى هذا التناقض ، بعد المحاضرة بهذا الرأى فى أبى العلاء ، ومناقشته فى بعض المجلات الادبية المصرية، ونشر طرف يسير منه [١] ، كانت للمحدثين عناية ما بهذا التناقض، فقرأت قولا مجملا لبعضهم [٢] ،

---

١ — نشر فى مجلة الاديب بحلب فى عددها الخاص بابى العلاء سنة ١٩٤٤

٢ — فى مجلة الاديب عدد تموز ١٩٤٤ ص ٥٦ ، لحضرة الاستاذ محمد يحيي الهاشمى

يشير فيه ألى أن كثيرا من المتناقضات التى نزعمها فى حياة المعرى آتية من تطور حياته الفكرية فكثيرا ماناقض الشاعر فى دور الكهولة والشيخوخة ماقاله فى دور الفتوة والشباب وهذه الناحية قل من راعاها ، .. وهو أجمال لا يمكن من مناقشة صاحب هذا القول فى سعة ، ولا هو مؤيد بشاهد أو دليل على تأثر هذا الاختلاف بتطور الحياة الفكرية ، كهولة وشيخوخة وشبابا . وبحسبي هنا أن أقول: أنه مادام تطور الحياة يؤثر فى آراء الرجل ، فقد وجب أن تكون دراستنا له منتهية بنا ألى مصور مختلف الالوان ، يمثل تغير هذه الآراء وتطورها ، وألا نطلق القول بتفلسفه إطلاقا ، وألا تقرر أن حياته كانت وفق مذهب فلسفى وعلى أصل ثابت .. الخ ... على أنه لم يخف أثر أختلاف أدوار الحياة على أحد ، وقد حاولنا وحاول غيرنا كثيرا ، أن ترتب آثار ابى العلاء ترتيبا زمنيا تفصيليا دقيقا ، فلم يتيسر ذلك ، وهو غير متيسر تماما مادامت تلك الفجوات فى آثاره فارغة بضياع الضائع ، بل نحن بعد العثور عليها جميعا ، لانهتدى لذلك الترتيب الزمنى المحدود المفصل ، لضياع معالمه . لكن قد استطاعت الدراسة الادبية ألى حد كبير ، أن ترتب الموجود من آثاره ، ترتيبا عاما ، يعين ماكان منها فى زمن الشباب ، وماكان منها بعد ذلك ، وبخاصة توزيع هذه الآثار على العهدين الواضحين ، اللذين ذكرهما المعرى ، وميزهما البحث فى حياته ، على ماسنشير إليه فيما يلى

وهذا الترتيب لم يؤثر فى مسألة تقابل آراء الرجل ، لأننا نجد المتقابلات فى كل عهد من عهوده شبابا وكهولة وشيخوخة ، بل نجد المتقابلات فى المكان الواحد ، وفى القطعة الواحدة ، كما أنك تجد المتقابلات فيما لايتغير فيه الراى ، لأنه أصل ثابت للتفكير ، كمسألة المعرفة والمذهب فيها على مامر ..

ولو قد سمعنا شيئا من التفصيل ، لأثر الزمن، فى تناقض الرجل عند صاحب الأشارة السابقة لناقشناه ولكنانقول رغم هذا الأجمال : هل التفلسف أن يترك الرجل آراء مختلطة ضائعة المعالم ، لاندرى متى وكيف قال بها ؟ ! ! وهل التفلسف أن يختلف الرأى اختلافا بينا مطلقا فى الأصول والأسس ؟ ؟ ! ! . . وهل . . وهل. ! !

✲ ✲ ✲

وحيث قرأت تلك الإشارة عن التناقض، وتأثره بتطور حياة المعرى، قرأت خبر محاولة فى التوفيق بين متناقضات أبى العلاء ، ولم يتهيأ لى أن أطلع على شىء من تفصيلها ... فإن يكن هذا التوفيق عقليا منطقيا ، فقد عدنا به ألى دعوى فلسفة الرجل بعد مامضى من قول فيها ، وبعدما أنسنا بطلانها ، وقد خلف صاحبنا فى كل حال آثارا فنية الطابع ، فنية الموضوعات ، فنية التناول ، فلعله ليس من الحق والصواب ، أن نحاول رد تناقضها، والتوفيق بين متخالفها توفيقا نظريا منطقيا عقليا . . وأما أن كان هذا التوفيق نفسيا فنيا فأنا لنرجوه ونتمنى أن يستطاع — وان لم يكن يعنى أصحاب الفن .هذا التوفيق بين متناقضات متفنن ، لأنهم لا يعنون بأن يقيموا قضايا صحيحة على النظر، ولاقياسات سليمة المقدمات، مؤدية إلى النتائج — وأنما يعنى أصحاب الفن بأن يدركوا، من نفسية المتفنن وشخصيته، ما آدى به ألى هذا التناقض أو التقابل ، ليفهموا بذلك مراميه ، ويدركوا خواطره ، وهذا البحث النفسى عن سر التقابل فى معانى أبى العلاء وتأملاته الفنية هو ماقصدنا أليه ، ورجونا أن نقيمه على وجه صحيح من أمر هذه النفس الجليلة . . فهما لفتها، وتمثلا له ..

والآن . . قد انصرفنا عن فلسفة أبى العلاء ، لما أوردنا قبل ذلك من

أوجه .... واطمأننا ألى تفننه ، ونظرنا ألى آرائه على أنها تأملات فنية ، ولحنا فيه ظاهرة التقابل بادية غالبة ، بل عامة أن شئت ؛ فما بنا بعد استبعاد تفلسفه أن نسمي هذا تناقضا أو نلتمس له تفسيرا عقليا . . . فلما رحنا نلتمس أسباب التقابل فيما ذكره القدامى من الأدباء ، لم نجد من هذه الأسباب ما يرتاح أليه، الناظر المتعمق فى أدب الرجل وتراثه الجليل ، سواء فى ذلك ما عللوا به تناقض أبى العلاء نفسه - انظر ص ٩٥ و ١٢٥ — أو ما أوردوه فى التقابل مطلقا — انظر ص ١٢٧ وما بعدها — فحق علينا بعد ذلك كله أن نلتمس السبيل الميسرة، والطريق المؤدية، ألى هذا التعليل والتبيين ، وإنما هى — فيما أقدر — الفهم النفسى للاديب وأدبه ، فهما ينتفع فيه بما عرفت الحياة العلميـة ، عن قوانا النفسية ونواميسها.. وأول ما تقضى به هذه الرغبة فى الفهم النفسى هو تقدير :

حال ابى العلاء الخاصة

نعنى فعنى بها تلك الحال الجسمية ، لما بين الجسم والنفس من صلة وثقى ، لامحل للاطالة فى الكلام عنها ؛ وكذلك نرجو أن نفهم شخصيته النفسية فهما عاما مجملا ، بما عرف من خبر واصف لحاله الجسمية المادية ، فنتبين أثرها النفسى ، عليه بصفة عامة ، وفكرة جامعة ، نظفر منها بما يكشف عن معانيه ومراميه ، فنفهم آثاره الأدبية بما وراء ألفاظها ،وما بين سطورها ، لا بكلماتها وجملها فحسب . . ثم نمضى بما يتكشف لنا من سرائر هذا الفن ، فنكمل صورة الشخصية النفسية للأديب المدروس . . . وكذلك نفهم الأدب بشخصية صاحبه ، ونستكمل فهم شخصية الأديب بفهم الأدب ، فى تبادل متسق لادور فيه ولا اضطراب

ولأبى العلاء بخاصة من حاله الجسيمة ، ما يؤذن بنفسية جديرة بالدرس،

مسعفة فى الوقت نفسه على الفهم ، يتجلى فيها بوضوح ما أشرنا اليه ، من تأثير الجسم فى النفس ، وتأثرها بحالته .. ولا حاجة بنا ألى الإطالة فى بيان مالهذا الفهم النفسى من فضل الابتناء على أصول مقررة ، ومعانى محققة ، لا على فروض واحتمالات ، أو تخرصات وادعاءات ، أو وقوف عند نقول ، يعتريها مايعترى الخبر من آفات ، فهو فهم أكثر واقعية ، وأدنى إلى الصدق من ظنون متخرصين أومتعصبين لحب أو كره ، غافلين عن نواميس الحياة للنفس البشرية ؛ إذ لم تكن تسعفهم معارف عهدهم على التنبه لها . وهو الفهم الذى يوائم الكرامة العقلية لهذا العصر ، ويرد العمل الأدبى ألى الضبط الصحيح ، والدقة العميقة

***

أيف أبو العلاء ، وهو حدث ، تلك الآفة القاسية ، التى ألم منها ألما شديدا ، مازال يشكوه حتى آخر عام من عمره ، أذ يقول لداعى الدعاة « وبصرى عن الأبصار نقيل ، قضى على وأنا ابن أربع ، ألا أفرق بين البازل والربيع »[١] كما شكاها سائر حياته ، شكوى تعتبر وحدها فنا بذاته ، يؤثر بالدرس المفرد فهو يقول للدنيا :

وأوقدت لى نار الظلام ، فلم أجد سناك بطرفى ، بل سنانك فى ضبنى[٢]

٢ ـ ٣٠٤

كما يقول للناس :

وجوهكمو كلف ، وأفواهكم عدى وأكبادكم سود ، وأعينكم زرق

---

١ ـ ياقوت : معجم الادباء ١ : ١٩٨ ط أولى

٢ ـ بالكسر ما بين الكشح والابط

ومابى طرق للمسير ولا السرى   لأنى ضرير ، لاتضىء لى الطرق

٢ — ١٠٣

وليلته بآفته صارت ثلاث ليال متراكبة ، . وهو يألم لأثر الآفة وماتحدثه من ضعف ، إذ تحبسه عن المنى والرغائب

حبستك أقدار ، ذوتك عن المنى   فمضى الصحاب ،وأنت ثاو حابس

٢ — ٢٥

كما يقول ناثرا «..والحوج ، على ذات عوج ، وهى على سواى سهلة، كالأنفاس ولو شاء الخالق لجعلنى مثل الناس» - ف ٢٧١ — . وهى تلزمه الحاجة ألى الناس ، فهو المستطيع بغيره ، كما يقول فى الغفران ـ ص ٢٠٦ ـ..وهو الذى يعد العصا يسارا :

غـدا العميان فى شرق وغرب   يعـدون العصى من اليسار

قنى فوارس ، ما كان منهم   فوارس رحرحان ولا النسار (١)

١ : ٣٢٨

✲ ✲ ✲

عصا فى يد الأعمى، يروم بها الهدى   أبر له من كل خدن وصاحب

١ : ٩٦

وأذ يعد أرشاده إلى الطريق صدقة :

تصدق على الأعمى بأخـذ يمينه   لتهـديه، وامنن بأفهامك الصما

٢ — ٢٤٠

وأذ يلتمس لأمثاله الرحمة من الناس أذا مامروا بهم :

---

١ — يومان من أيام العرب

أذا مر أعمى فارحموه، وأيقنوا وأن لم تكفوا، أن كلكمو أعمى

٢ — ٢٤٢

ويشكو فى لوعة نفوسا لاتحن على أقدامهم العاثرة :

نشكو نفوسا، ألينا غير محسنة ما أن تحن على أقدامنا العثر

١ — ٣١٤

ويغيظه بخل الناس عليهم، حتى بغوا الحياة من الموتى بالقراءة على قبورهم :

عميانكم قرأت على أجداثكم وأتوا لكم بالأبر من آتاكمو

أحياؤكم بخلت عليهم بالندى فبغوه بالفرقان من موتاكمو

٢ — ٢٣٨

وتقرؤه فى قطعة عنيفة قد جمع فيها كل آلامه، ومظاهر فقدانه من آفته، ألى ضياع لذة الدنيا، إلى البعد عن الخمر وتسريتها عن النفس، ففقد الشباب الذى لاعوض له، والحرمان من الحب، فهو يقول :

عمى العين، يتلوه عمى الدين والهدى فليلتى القصوى ثلاث ليالى

وما أزمت نفسى البنان، على التى أذا أزمت، عضت بشوك سيال

ولاقصرت لى أم ليلى بشربها حنادس أوقات على طيال

أذاما اجتمعنا، هاجت الحزن ألفة محدثة عن جمعنا بزيال

لحا الله غارات السنين فأنها مبدلة ظلمانها بريال

وماسرنى رب الخيال بشخصه فيطلب منى النوم طيف خيال

وهوّن أرزاء الحوادث أننى وحيد أعانيها بغير عيال

وهى شكوى باكية عدم النسل أيضا.. وإنك لترهب زفراته المحرقة أذ يقول بعد ذلك كله :

فدعنى ، وأهوالا أمارس ضنكها وإياك عنى ، لاتقف بحيالى

٢ — ١٨٧ ، ٨٨

* * *

هذه الآفة بينة الأثر فى الحيـاة ، مايحتاج أمرها الى استشهاد ، ولـكنك تسمع هذا من أبى العــلاء لتدرك وقعها عليه ، ومدى عنائه بها ، فتقدر تأثيرها فى حياته ، وفعلها فى نفسه

أبو العلاء رجل كالناس ، خاضع للنواميس الحيوية ، كما يقول هو :

ودنياك سارت بالأنام مغذة فلا فرق فيها بين سيرى وسيركا

٢ - ١٣١

ويقول :

خلقت من الدنيا وعشت كأهلها أجد كما جدوا ، وألهو كما لهوا

٢ - ٣٣٥

فهو متأثر بآفته هذا التأثر الحاد ، ولا سيما حين يقدر دارسه أنه خرج إلى الدنيا بوراثة طامحة ، من آب قد نمته أسرة عرفت بالعلم وتولى القضاء ، وأم من حلب التى يقول أبو العلاء عن نسائها فى الغفران: « فطالما كن أجود غرائز من رجالهن ، وربما كان فى نساء حلب شواعر» - ص ٢٠٥ — فهى وراثة كريمة، دافعة الى ابتغاء الرفعة.، والآفة كابحة معوقة ، فالشعور بها حاد ثائر .. ومن هنا يبدأفهم نفسية أبى العلاء ، بالنواميس المقررة فى نفوس الناس

* * *

أراد أبو العلاء ، مع هذه الوراثة ، وهاتيك الآفة ، أن يستعيض عما فاته ،

ويكمل مانقصه ، خضوعا للناموس النفسى [١] فى ذلك ، حين يكون العيب الطبيعى سببا فى تقوية الروح المعنوية ، وعاملا فى بروز الشخصية رغبة فى التعادل النفسى ، وسعيا الى التكافؤ ، وطلبا للتويض عن النقص . وهذا هو ما يشير اليه أحد النفسيين المحدثين حين يقول : إن الحضارة كلها نتيجة المساعى التى تبذل للتغلب على الشعور بالنقص لذى ينشأ عن عاهة تلحق الجسد ... فكان الدور الأول من حياته ، إلى سن الثلاثين — على مايحدده هو فيما سيجىء — منفعلا بهذا الشعور ، فاعتزم اعتزاما قويا ، — على ماقال فى الفصول — أن يفر من القدر .. « ولقد فررت من القدر » ف ٢٨٣ قد فررت من قدر الله - ف ٢٥١ - . . ولذلك تجاهل الواقع الجسمى المادى فيه؛ وراح يطلب الدنيا فى جد وتصميم ، معتزما أن يساوى الآخرين فيها ، فكان منه فى هذا الدور ، ماوصفه مترجموه ، فى قولهم : عجب من العجب ، شاعر ظريف ، يلعب بالشطرنج والنرد ، ويدخل فى كل فن من الجد والهزل ، يقول:

---

(١) اشتهر القول فى هذه الحقائق النفسية ، حتى أغنى عن التفصيل هنا . وجملة مانشير اليه منها : أنهم يجعلون الغرائز الانسانية مجموعات، أقواها وأهمها، مجموعة غرائز الذات ، أو المركب الذاتى ، الذى يتألف من عناصر تكون وحدة متماسكة ، تصل بين العقل والجسم ، وبها قوام الشخصية ، فاذا ما اعترى هذا المركب الذاتى من العقبات ما يؤثر عليه كالعيوب الطبيعية ، وجدت عقدة الانحطاط ، ومركب النقص ... ولهذه الحال اثر في الشخصية يختلف باختلاف الاشخاص والامزجة والطبائع ، فقد يؤدى الى مشكلات نفسية ، وحالات عصبية ، تعجز الشخصية ، وقد يؤدى الى شعور قوى بالذاتية ، وتماسك في الشخصية ، رغبة فى التعويض ، وتحقيق التكافؤ النفسى ... ولعل هذا يفسر القولة المأثورة : كل ذى عاهة جبار ...

أنا أحمد الله على العمى ، كما يحمده غيرى على البصر [1] ..وهكذا أراد أبو العلاء بالقول والفعل معا ، أن يقهر آفته وينكرها ، ويعترف بالحياة ومطامعها ، ويمضى فى طلبها ، مغطيا لنقصه ، استجابة للناموس النفسى ... فحفظ ودرس ، ولقى الأشياخ،ورحل فى طلب العلم والدنيا ، ونضج مبكرا ، فقال فى هذا الدور شعرا ،يظهر فيه جليا أثر الناموس النفسى المذكور ، من إنكار الواقع، والاستعلاء عليه .. فهو يفخر فخرا متوسعا ، وهو متغزل ، وهو يحب الاجتماع ... الخ تقرأ قصيدة من شعر شبابه فتراه فيها ذا إقدام، ولا إقدام لمثله ، وذا نائل وهو مكد لم يوسر : يغدو ولو أن الصباح صوارم ، ويسرى ولو أن الظلام جحافل ! وما إلى ذلك..فهو يعيش فى هذا الكبت المستمر منكرا واقعه الجسمى مشاركا فى الدنيا ، راغبا آملا .. ولكن رغم هذا الكبت تتنفس الحقيقة أحيانا، فيتمنى البصر فى الصبا ، إذ يقول : —

فليت الليالى سامحتنى بناظر يراك ، ومن لى بالضحى فى الأصائل
فلو أن عينى متعتها بنظرة اليك الأمانى ، ماحلمت بغائل

سقط ٢ : ٣٢

وهكذا يمضى العصر الأول ، أو الدور الأول ، أو الصراع الأول،إن شئت،فى عناء عنيف ، من التكمل والاستعلاء وإنكار الواقع ، والطمع فى مالم يمنح آلته.. وذلك كله فى زمن ليس بالخير ولا بالمستقر،من حيث الشؤون السياسية والاجتماعية،فالصراع فى مثله شاق على المسلحين ، فكيف به على مثله!! .. لم تواته ظروف الحياة ، إذ كانت مضطربة ، وكانت قاسية،فلم يستطع الفرار من قدره، بل راض صعاب آماله فكانت شموسا كما يقول :

---

١ ـ معجم الادباء : ١ : ١٩٩ ط أولى

ورضت صعاب آمالى ، فكانت خيولا فى مراتعها شمسنه

٢ — ٢٩٩

أبو العلاء نفسه يقسم حياته إلى دورين فى النثر والشعر ، فهكذا يقسمها فى رسائله إلى الداعى (١) ، وهكذا يقسمها فى اللزوميات قوله :

رضيت ملاوة فحفظت علما وأحفظنى الزمان فقل حفظى

٢ — ٧٠

وأبو العلاء نفسه ، يصف هذا الدور من حياته الأولى . نثرا وشعرا ، ويتضح فى الوصف التقسيم والتحديد ، فهو يقول فى الفصول - ٢٧٩ - مازلت آمل الخير وأرقبه ، حتى نضوت كملا ثلاثين ، كأنى ذبحت بكل عام حملا أرق — فيه سواد وبياض — بياضه الأيام ، وسواده لياليه ، وهيهات كأننى قتلت بالسنة حية عرماء .. أن الزمن كثير الشرور ؛ فلما تقضت الثلاثون ، وأنا كواضع مرجله على نار الحباحب ، علمت أن الخير منى غير قريب » ..

كما يقول - ف ٢٣١ - « وأن الله خلقنى لأمر ؛ حاولت سواه فألفيت المبهم بغير انفراج .. ويقول : « هجرت فما أغنى التهجير ، وأدلجت فما أغنى الإدلاج » - ف ٢٨٥ —

كما يتحدث فى شعره غير قليل ، عن أمل كالقنا ، وحال فى قصر السهم

أقمت برغمى ، وما طائرى براض ، إذا ألفته الوكون

ولى أمل ، كأنم القنا وحال كأقصر سهم يكون

٢ - ٢٨٩

كما يقول :

---

١ — معجم الادباء : ١ : ١٩٩ ط اولى

أرجى أموراً، لم يقدر بلوغها وأخشى خطوبا ، والمهيمن كافيها

٣٤٥٠٢

طلب مكارما فأصاب كلاما ، فهو قد أراد غير الشعر، وأكثر من الشعر:

طلبت مكارما فأجدت لفظاً كأنا خالدان على الزمان

٣٢١٠٢

هكذا انتهى الدور الأول الذى حدده أبو العلاء ، ووصف حاله المكبوتة فيه، ذلك الوصف الصريح الدقيق الذى سمعته

* * *

أدرك أبو العلاء أن هذا القدر أخو الحياة ، فقال : هل أطأ على غير الأرض ، أو أبرز من تحت السماء !!! أدلجت فأصبح أمام المدلجين ، وهجرت وهو مع المهجرين ؛ قال وعرس مع القافلة المعرسين ـ ف ٢٥١ ـ .. لا مفر له من هذا الواقع المادى ، ولا مخلص له من همته ومطامحه ، فهو يغير الميدان ولكن المعركة هى المعركة ، بل هى أحمى وطيساً ، وأعنف صراعا . . فإذا هو فى الدور الثانى، يعترف بالواقع الجسمى ، وينكر الدنيا ، أو ينكر ما فى الفطرة من طلاب هذه الدنيا ، ينكر ذلك كله استعلاء وتغطية وتعويضا ، وخضوعا دائما للناموس النفسى الذى بنى دفعه الحضارة الإنسانية بجهاد المتغلبين على ضعفهم

هو فى كلا دوريه منكر الواقع، مستعل عليه، حامل نفسه على غير ما تحتمل: أنكر أولا آفته، واعترف بالدنيا ، يطلبها وليس من المزاحمين فيها.. ثم أنكر ثانياً فطرته فى طلاب الدنيا حين اعترف بواقع ضعفه. فليسعد بالحرمان ، حين يسعد الناس بالنوال ، فهو يدعي كراهة الدنيا ؛ بل قل يأخذ نفسه صادقا بكراهيتها ، فيرتفع عن الطلب ، ويحقر المنى ، ويرى الآخرة أفضل وأسعد ؛

فهو فى فنه الأدبى لهذا الدور، يتحدث عن فضل الزهد وخيره، وقبح الحياة الدنيا وفنائها، ويذم الناس وجهلهم، وجشعهم، ويفر منهم ويدعو إلى اعتزالهم..وماهو فى كل ذلك إلا مكبوت، يحاول قهر فطرته، فتغلبه حينا ويغلبها حينا، يغلبهافيوقع أنغاماً حزينة، راحلة،واعظة مودعة، مستروحة ريح الأخرى ..وتغلبه فطرته، فيقول الحقيقةفى صدقوشجاعة، ويوقع ألحانا آسفة على الحرمان ناعية الفشل، و يسجل حقائق قوية جريئة عن نسك أصحاب الهمم البعيدة حين يزعمون النسك

ومن المفهوم فى هذا الدور وقد اعترف بواقع القدر الملازم، أن يقول العمى عورةوالواجب استتاره فى كل أحواله..ويتخذ مغارة ينزل اليها ويأكل فيها (الرسائل ١٣٠ ط أكسفورد) بعد ما كان يقول: أن العمى نعمة [1] وهكذا تغنون دورى حياة الرجل عبارتاه: العمى نعمة .. والعمى عورة.

❁ ❁ ❁

وأبو العلاء نفسه، يصف هذاالدورالثانى أيضافى دقةوصراحة وشجاعة، فيقول: انالاأضبر — أثب — فهلا أصبراا كما يقول: وما اعتزلت، إلا بعد ما جددت وهزلت، فوجدتنى لا أنفذ فى جد ولا هزل، ولا أخصب فى التسريح ولا الأزل، فعلى بالصبر، لابد للمبهم من انفراج — ف ٢٩٧ —

---

١ — من الطريف بهذه المناسبة الاشارة إلى ما يقال من أن أديسون المخترع،وهو أصم كان فى وسعه أن يسترد سمعه بجراحة، وقد حدد ميعاد لها، ولكنه أبى أخيرا أن تجرى العملية، وقال: أن صممه يحجب عنه الضوضاء، ويقيه سماع كثير من الهذر،فيستطيع أن يكب على عمله ويحصر ذهنه فيه. . وهو شبيه بما يورده بعض المتادبين بيانا لقول المعرى فى ان العمى نعمة، اى أنها تريحه من رؤية الثقلاء ... والمسالة فى حقيقتها النفسية ترجع إلى ما أشرنا اليه، وهي كذلك فى أديسون وصممه

وليس الصبر بالهين عليه ولا السهل - فهو يقول : لست أخا صبر، ولا حليف ضبر — ف ٣٠٤ —

وفى شعره من وصف هذا الدور غير قليل ، فلقد سمعناه قبل يقول :

لما رأيت سجايا العصر ترخصنى ردت قدرى إلى صبرى فأغلانى

١ — ١٠٥

ويتحدث عن غناه بالقناعة ، وتعوده إذا طلب الناس :

إذا طلبوا فاقنع لتظفر بالغنى وإن نطقوا فاصمت لترجع باللب

١ — ٩٦

كما يقول :

خلافك بعض الناس يرجى به الغنى وفى الدهر أقوام خلافهمو حزم

فأفطر إذا صاموا ، وصم عند فطرهم على خبرة ، إن الدواء هو الأزم(١)

٢ : ٢١٩

كما يقول أيضا :

ولست من الركب إذ يعوجون فى المعلم

إذا طمعوا فاقتنع وإن جهلوا فاحلم

٢ : ٢٧٤

كما يعترف فى شجاعة جديرة بالاكبار، أن آفته سبب فيما فعل من رغبة فى الاعتزال والبعد عن الناس، فى مثل قوله :

إذا كف صل أفعوان فما له سوى بيته . يقتات ما عمر التربا

ولو ذهبت عينا هزبر مساور لما راع ضأنا فى المراتع أو سربا

١ : ٨٠

---

(١) الامساك عن الطعام بسبب الحمية

كما يجهر عقب ذكر الآفة بقوله :

وما زال نعم الرأى لى أن منزلى   كأنى فيه مضمر ، كن فى نعما

٢ : ٢٤٢

وهو يسجل الصراع النفسى فى دقة شاعرة ، ولا يمتنع من الجهر بالواقع كما هو .. فلا يأنف من أن يصرح بأنه لايفعل لنسك ، بل لتأثره بما أصابه فيقول ، بعد ذكر المرأة :

ولم تنب لاختيار كان منتجبا   لكنك العود إذ يلحى وينتجب(١)

ويعقب عليه بقوله فى العزلة :

وما احتجبت عن الأقوام من نسك   وإنما أنت للنكراء محتجب

قالت لى النفس ، أنى فى أذى وقذى   فقلت صبرا وتسليما ، كذا يجب

١ : ٦٥،٦٦

ويذكر هواه وتشهيه كثيرا ، ولوعته على الفوات ، ويكرر القول بأنه لم ينسك وإنما حرم ، وفى القطعة التالية ترى مثلا لذلك واضحا :

هواك مشابه فرسا جموحا   وما ألجمته ، فعليك رسنه

ويتحدث عما فاته بقوله بعد :

ولا يعجبك روض باكرته   غمائمه ، وأغصان يمسنه

ولا الأفواه تضحك عن غريض   فرائد فى مدامتها غمسنه

ويذكر كبته لنفسه بقوله :

ألم ترنى حميت بنات صدرى   فما زوجتهن وقد عنسنه

ولا أبرزتهن إلى أنيس   إذا نور الوحوش به أنسنه

---

(١) ينتجب اى يقشر

ويجهر فى صراحة بأنه ليس ناسكا :

وقال الفارسون حليف زهد   وأخطأت الظنون بما فرسنه

ورضت صعاب آمالى ، فكانت   خيولا فى مراتعها شمسنه

ولم أعرض عن اللذات إلا   لأن خيارها عنى خنسنه

وهكذا يصر أبو العلاء على أن يحسن فهم نفسه ، ويرد فعاله إلى أصولها النفسية ، كما أصر على أنه عاش كسائر الناس ، ولها كما لهوا ، ووجد كما جدوا فليس من الخير فى شىء أن يعلل فعله بالفلسفة، والتفلسف، والدعاوى الواسعة

تغاير آرائه ظاهرة نفسية

انتهت حياة أبى العلاء على هذه الحال التى صار اليها فى دوره الثانى ، فأمضى حياة كلها أنكار للواقع ، واستعلاء عليه ، ورغبة فى تكميل ما نقصه فيوما ينكر آفته ، ويوما ينكر بشريته .. حينا يطلب الدنيا بغير آلتها ، وآنا يخرج نفسه من الدنيا ، وهو فيها... ذكاؤه دافع ، وآماله واثبة..وواقعه قاس ونقصه غير يسير ، ورغبته فى التكمل جامحة ، فهو ونفسه أبدا فى جذاب كما قال :

إنى ونفسى أبدا فى جذاب   أكذبها وهى تحب الكذاب

١ــ١٢٣

وفى هذه الحال النفسية ، واجه أبو العلاء الحياة فى حس مرهف وشعور دقيق ، وروح ساهرة.، وراح يدون خواطره، تدوينا موسعا، مفصلا، دقيقا ، شاملا للعوالم النفسية المختلفة التى تمر به ، ويمر بها ، مدركا فى دقة أخفى غوامض هذه العوالم النفسية ، فهل يستغرب بعد ذلك ، أن يغضب هذا الرجل فيواثب

القدر ، ويهاجم الأقداس ، ويلعن الناس ، أو أن ينظر إلى حاله،فيرى الأمر حظا ، واتفاقا لاغير ، ويلعن هذا الحظ .. أو أن يروض نفسه، فتلين حينا وتسخر من الحياة ومن فيها ، ومن متع الدنيا والمتقاتلين عليها ، وتشره ذلك تشويه زاهد، ممعن فى التجرد والتخلى ... أو أن تشعر هذه النفس الدقيقة بالحياة الواقعة، كما أخضعت الناس ، وخضعوا لها ؛ فتحلل من ذلك ماتحلل تحليلا بارعا ، وتصفه وصفا قديراً .. أو أن تلجأ هذه النفس إذا قساعليها الواقع ، إلى فسيح الرحمة الإلهية،ورحب العوالم السماوية.. ؟..لابعد فى شيء من ذلك ،ولاغرابة أبداً ؛ بل شأن النفس المكبوتة هذا الكبت، المتطلعة ذلك التطلع أن تتنقل مثل هذا التنقل

ولو أن رجلا عاديا،خالصا من هذا الصراع الدائم فى نفس أبى العلاء قد راح يدون خواطر نفسه،فى شعور تام بها ،وتتبع متنبه لها ، واستيعاب شامل لعوالمها، لمر فى الحياة بنواحى مختلفة، تختلف بها خواطره ، ولخرج بشبيه لما قاله أبو العلاء ، يختلف فيه مرحه عن غضبه ، وهزيمته عن نجاحه ، وفرحه عن حزنه، فكيف بأبى العلاء وهو يتردد بين أمرين أحلاهما مر ؛ بل هما مرير وأمر . واقع قاس ،وإنكار جرىء (١)

---

(١) فى هذا المقام الذى نذكر فيه اختلاف العوالم النفسية للانسان اختلافا ينتهى إلى خواطر فى مثل تقابل معانى المعرى لو دونت كتدوين معانيه ، نشير الى مايقال عن شخصية واقعية،لرجل عصرى عملى جبار،روت المجلات الدورية من عمله مايشبه تناقض أبى العلاء القولى وبعض تصرفه العملى ، وهو فيما يحكون : الزعيم اليابانى المسيو تو يوما،أحد الرجال الذين يوجهون الحياة اليابانية الحاضرة ، ويقولون عنه : أنه يبدو رجلا عجوزا هادىء الطبع ، لطيف المعشر ، ولكنه يدبر المؤامرات لاعداء الحكومة .. حتي قيل إنه قتل فى طوكيو اثناء عام واحد (١٢٠٠) رجل . وهذا الجبار المدبر للمؤامرات يعيش فى حجرة

فالسر فى تناقض، أو تغاير آراء أبى العلاء نفسى محض ، يرجع إلى أمرين فى نفسه: أو إلى ظاهرتين فيه :

أولاهما — الرغبة المتوثبة فى الاستعلاء على ضعفه والقهر لواقعه .. وهو ما ساد دورى حياته على السواء

وثانيتهما — دقة هذه النفس الشاعرة فى إدراك عوالمها المختلفة، وخوالجها المتغايرة .. ثم يؤازر هذين العاملين انقطاع أبى العلاء لتدوين خواطره . وفراغه لذلك ، وتوافره عليه

هكذا تغايرت آراء أبى العلاء ومعانيه ، دينيها ودنيويها ، فنيها وعمليها، بل هو فى غير الدينى قد يكون أكثر تغايراً أو تقابلا... وهكذا ينبغى أن نفهم آثار أبى العلاء — فيما أرى — فهما نفسيا، صحيحا، صادقاً ، دقيقا، عميقا ، ممتعا، مقبولا على هذا الأساس

بسيطة لا أثاث فيها ، ينام على الأرض ، ويرفض أن يتدفأ فى الشتاء، حتى لا يحرق الفحم الذى يجب أن يخصص لمصانع القنابل والذخيرة ، ولا يأكل اللحوم لأنه من أعضاء جمعية الرفق بالحيوان . وإذا ما رأى طفلا فى الشارع أسرع نحوه، وحمله ولاعبه ولاطفه . وإذا رأى قطة تتالم دمعت عيناه . ثم بعد ذلك كله يعود إلى داره ويرتب المؤامرات لقتل أعدائه فى الظلام، ويقتل منهم فعلا مثل هذا العدد الذى ذكر فى عام واحد ؟؟!

وسواء أصحت هذه القصة أم لم تصح، فانا لا نريد أن نقول أن أبا العلاء من القلة النادرة في الشخصيات كهذه الشخصية الحية الآن، بل قد وصفنا من حاله النفسية التى هى أثر واقعه الجسمى المادى ،ما يفسر هذا التقابل والتناقض باختلاف عوالمه النفسية .. وإنما اوردت الحكاية عن هذا اليابانى للمناسبة القريبه فى التقابل بين الرحمة التى تبكى لتالم حيوان والقسوة التي تحرم نفسها الدفء لتدخر للقنابل ، وتدبر للاغتيال !!

وإذا مافهمنا أبا العلاء، على هذا الوجه، فقد فهمناه من نفسه هو، لا من نفوس دارسيه وقارئيه، كما حصل ذلك فى القديم والحديث، وفى الذى سمعت لهم من أحكام وآراء؛ إن ينهض بها جانب من قوله، قعدت بها جوانب أخرى وجوانب !!

فأما فى القديم، فحيث كانت العناية بالناحية الدينية واضحة فى المترجمين له لم يعنوا بتناقضه إلا فى المسائل الدينية، فذهبوا يفسرون حاله، حينا بالشك وحينا بالإلحاد، الذى تاب منه وأناب، وحينا بعدهم ما لم يتفق مع العقيدة مكذوبا عليه؛ كما يعنون براوية أخبار أو منامات دالة على حسن حاله وسعادة مصيره .. الخ ما نعرف من الحكم عليه وعلى غيره، حكما أخرويا فى هذه الدنيا !!!

وأما حديثا فباتباع بعض المتحدثين عنه، مثل هذه الخطة، ولو أخلوا بالمنهج العقلى فى الدراسة إخلالا واضحا، كالذى فعل من (١) أنكر أن يكون فى غير اللزوميات إلحاد .. فعمم ذلك فيما لم يره من كتب، قائلا « .. ولا إن شاء الله فى كتبه مما لم يصلنا، اللهم إلا نزر يسير... » فحكم على مالم يصلنا من كتب المعرى بحسن الرغبة، وطيب الأمل، أنها خالية مما يكفر إن شاء الله !!

ومن فهمه فى نفس دراسيه حديثا مانقرأ فى دائرة المعارف الإسلامية — ١ : ٣٨٢، ٨٣ من الترجمة العربية — أنه ليست هناك عقيدة إسلامية،

(١) هو صاحب «أبى العلاء» وما اليه، إذ أنه فى ص ٢٩٠ بعد ما اعترف بما له من الشعر فى اللزوم واستغفر مما يرمى إلى المروق يقول: « ولكن لا يوجد له شىء فى غيره من هذا النحو، لا فى س، ولا فى ملقى السبيل، ولا إن شاء الله فى سائر كتبه مما لم يصلنا اللهم الا نزر يسير لا يصرح الى الغرض فلا حاجة لنا اذا به.. » ومادرى كيف حكم على ما لم يصلنا من آثار الرجل بنفى أو إثبات لما فيها ! ! كما لا أدرى كيف استثنى هذا النزر اليسير الذى لا يصرح وهو لم يره الا بعين الامل! !

يسخر منها أبو العلاء ، وأنه كان يرى الدين من صنع العقل الانسانى ، ونتيجة للتربية والعادة ، ولم يقبل أية صورة من صور الحياة الأخرى ، وكان ينظر إلى الفناء على أنه خلاص سعيد من الحياة . . الخ !! »

ولو قرىء أبو العلاء ليفهم من نفسه ، وفى نفسه ، لكان حاله فى الدين كحاله فى الدنيا ، خاضعا لمؤثرات تتطلب التفسير المطرد الصحيح ، سواء أكان ذلك التفسير بالناموس النفسى الذى وصفناه أم كان بغير ذلك ؛ مما يمكن أن يقوله غيرنا ، مادام تفسيرا قائما على أصل صحيح غير ادعائى ولا تحكمى كما كان ذلك حتى الآن وإذ ذاك سيكون القول بتفلسف أبى العلاء ، وشرح فلسفته أخف مما هو الآن حدة ، وأضيق دائرة ، وأقل تحكما فى فهم حياة الرجل ، مادام الدرس قائما على أساس من التجربة الخبيرة بالدنيا والناس

والآن ، وقد اطمأننا إلى هذا التفسير النفسى لحياة أبى العلاء الأديب وفهم أقواله على أساسه . بقى علينا أن نتقدم الى بحث آخر هو :

أبو العلاء بين قوله وفعله

إذ سمعنا مفلسفى الرجل أنفسهم يقولون : أن الفلسفة بحث ، تخضع حياة الباحث لنتائجه، وناقشناهم فى ذلك كله من أمر صاحبهم — انظر ص٩٩ ومايليها — بعد ما افتقدنا الأصل الفلسفى ، الذى يقيم عليه الفيلسوف فلسفته ، وهو مذهبه فى المعرفة ، فلم نظفر للرجل فى هذا بمذهب ، وبعدما التمسنا رأيه فى شئون حياة الإنسان العملية، التى زعموا لأبى العلاء بها عناية خاصة ، فوجدناه فيها جميعها ينفى ويثبت ، ويأمروينهى ، ويحسن ويقبح ، فلم نستطيع من أجل ذلك كله ، أن نجد لسلوك أبى العلاء العملى أصلا فلسفيا نقيمه عليه ، ونعزوه أليه . . وقررنا بذلك اننا لانستطيع أن نعزو أسلوبه فى الحياة ألى فكرة فلسفية سيطرت عليه ، لأننا لانجدها ، ولا نراه يثبت على شىء منها ، فلا نعرف ألى أى قوليه ننسب فعله ، أن كان له فعل ثابت متسق قد اطرد ؛ وإنه لخليق بنا ، والأمر كذلك أن نعلل أفعاله بغير التفلسف الذى يتبع فيه السلوك النظر ، ويتأثر الفعل بالرأى

ونحن قد اطمأننا فيما مضى ، ألى أن أبا العلاء الذى لانلمح فيه سمات الفيلسوف ـ بل نجد منه الأخلال الواضح بالمنهج الفلسفى ـ أنما هو رجل وجدانى ، متفنن ، قوى الأحساس ، دقيقه ، صادق التعبير عنه ، جرىء القول به،قد أعطانا سجلا نفسيا لعوالمه المختلفة ، اعلمنا لانظفر بمثله ، من أديب ، سجل اعترافاته بدقة وتفصيل ، معلنا قصده ألى الاعتراف، ومصمما على

المصارحة . فما اطمأننا إلى أن حياة الرجل ، كانت — كما يقضى بذلك الواقع الجسمى — خاضعة لفعل الناموس النفسى ، المعروف ، الذى ندين الحياة والحضارة لآثاره فى أعمال من نقصتهم الدنيا بعض قواهم ، فعوضوا نقصهم ، وسدوا عجزهم ، وأن حياة صاحبنا قد تعرضت بذلك للون من الاستعلاء الكابت فى دوريها الواضحين ، فكان ذلك خليقا ، بأن ينقل الرجل بين عوالم متغايرة ، وأجواء نفسية متقابلة ، يصدق تعبيره المحس الدقيق عنها ، فيبترك فى قوله تلك الآثار الواضحة من التعارض ، الذى يبدو جليا بينا ، لمن قرأ أدبه ، فوصل بين اطرافه ، وربط بين أجزائه ، ونظر ألى الوحدة المتصلة بين أوله وآخره ، وبعيده وقريبه . . وأذا مابطل التعليل الفلسفى لبعض فعله أو كله ، فقد بقى علينا ولابد ، أن ننظر ألى ما يمكن أن يكون لهذا الفهم النفسى للرجل ، من أثر فى فعله ، لنفهم حياته العملية ، كما فهمنا حياته القولية ، فهماذا أصول ثابته ، صادقة، تمدها الخبرة النفسية ، وتؤيدها المعرفة العلمية، لا فهم نقول ومرويات، يعتريها مايعترى الأخبار دائما، من اضطراب وتأثر ، ولافهم فروض ، ينال منها الهوى والتحكم . . وذلك هو تمام ماندعو أليه فى فهم شخصية الأديب، فهما يجدى على فهم أدبه.. فهما متمثلا متذوقا . .

فلننظر أولا فيما عرف وصح نقله عن أسلوب حياة الرجل فأما :

زهد ابى العلاء

فقد كان فى العصر الثانى من حياته يكتفى بدخله القليل لا أكثر ، وهو ضرب من الاعتدال المترفع ، ليس كالزهد الذى وصفه وأطنب فيه ، حينما كان يتجه ألى القول فى الزهد.. فلا هو ترك الدنيا الترك التام ، ولاحرم

نفسه، ذلك الحرمان الشبيه برهبنة الرهبان، وما ألى ذلك مما تراه فيما أسلفنا من حديثه عن الزهد . . وهى حال من القناعة ، لعلك تراها أيسر ماتحمله عليه نفسيته التى وصفناها آنفا ، وأنك لتجد غير قليل من الشواهد ، على توجيه نفسيته له ، نحو هذه القناعة والاعتدال ، او الزهد إن أبيت ألا أن تسميه كذلك ..فهو عاجز عن الغنى ، وبخاصة بعد تجربته طوال الدهر الأول من حياته أيام الشباب والأمل ، فبقى أن يكون الصبر عنده أروح من تكلف الطلب ، لأنه يستطيع حمل نفسه عليه ، حين يعز عليه سبيل الطلب ووسائله ، كما يقول :

الصبر أروح من حاج تكلفه　　تزجى له الخيلُ والمهرية القودا

١ : ٢١٧

فهو يكتفى بالقناعة ، عن عظائم لا تبلغ الا بالجد ، ويقول :

ويكفيك التقنع من قريب　　عظائم ، ليس تبلغ بالتونى

٢ : ٣١٨

وهو مستطيع أن يخفى مطعمه، فلا يدرى أحد ماذا أكل ، كقوله :

لنفسى ما أطعمت ، لم يدر آكل　　سواى ، أحلوا جاز فى الفم أم مرا

١ : ٢٨٨

وبهذا ومثله من أخذ النفس بالصبر يثرى مع فقد المال، ويقول :

إذا أثريت من صبر جميـــل　　فأنت وإن فقدت المال مثر

١ : ٣٢٢

وهكذا يثرى بالمعالى ، فيقول :

كثير من تكثر بالمعـــالى　　على ماكان من قل وكثر

١ : ٣٢٢

ويكون العقل الوافر خيرا من المال فى قوله :

فأن لم تنل وفرا من المال فاستعن وفارة عقل ، فهى أزكى من الوفر

١ : ٣٠٨

وهكذا يستعلى على العجز ، ويغلى نفسه أذا ما أرخصه الناس ، ويسجل ذلك قائلا :

لما رأيت سجايا العصر ترخصنى رددت قدرى ألى صبرى فأغلانى

١ : ١٠٥

وهى قوة نفس لاعجب فى أن تكون عند أبى العلاء ، وأن يكافح بها مافاته من قوة وقدرة على الغلاب . . ولكن أجل وأكثر من هذه القوة على الصبر ، قوته على الجهر وصدق وصفه لنفسه فى غير مواربة ولا مداجاة ، ويتمثل لك ذلك أذا ماقدرت أن هذا البيت الأخير « لما رأيت سجايا العصر .. الخ » وهو جلى تمام الجلاء فى وصف الحال النفسية وناموسها الذى اشرنا أليه وأجرينا حياته عليه . . هـذا البيت أنما يقوله بعد قوله :

وحب دنياك طبع فى المقيم بها فقد منيت بقرن منه غلاب

١ : ١٠٥

فيجهر صريحا بحب الدنيا وغلبة ذلك له ، كما يجهر بما اتقى به ذلك ، أذ أرخصه العصر فأغلا به الصبر . . ويرحم الله الشيخ فما أقواه ، ثم ما أصدقه .. وقد فسر لنا قناعته خير تفسير وأصرحـــه ، ولذلك نفهم عنه زهده ، مع استمرار أمله بعد ماعجز ، فهما نفسيا واقعيا ، لا تفلسف فيه ولا هو مذهب له ، ولا حاجة بنا ألى تكلف كهذا . وفى الذى مضى من قوله المتقابل فى هذا الزهد مايتم به هذا الفهم النفسى ، ولا نعيده هنا . .

ومن هذا الزهد تحريم الحيوان — وقوله فيه متقابل — على مارأيت فيما مضى ، وفعله فيه مفهوم غير مستعص على هذا البيان النفسى ، دون الزيادة عليه ببرهمة أو غيرها من الدعاوى . . . وأما

العـــزلة

فأن الرجل بعد ما أعلن عن عزمه عليها، ما أعلن فى رســالته ألى أهل المعرة ، وبعدما قال فى فضلها ما قال ، كما قال فى ضررها ماقال — انظر ص٨٨ ومابعدها — ، لم يصر منها الى حال تحوج ألى التعليل الفلسفى أو النفسى ، أذ لم يلتزمها ، كما يشهد بذلك من آثاره ، مثل قوله :

يزورنى القوم ، هذا أرضه يمن   من البلاد ، وهذا أرضه الطبس[1]

٢ : ٢١

وقوله :

وشهرت فى الدنيا ، ومن لى أن أرى   كالنير الفانى مع الأشـــهار

١ : ٣٦٦

وأخبار القدماء مؤيدة لهذا ، كما أن المحـــدثين يذكرون فشله فى طلب العزلة[2] ، وليس الذى يعنينا أنهم يؤيدون الأخبار الواردة بذلك ، وإنما المسألة هى تقريرهم، أن هذه العزلة كانت أمنية ضائعة ، لأن أبا العلاء وأن زهد فى كل لذات الحياة لا يستطيع أن يزهد فى العـلم والتأليف ، اللذين قد ملكاه واستأثرا به ، وكلاهما يكلفه عشرة الناس ، لاحتياجه ألى من يقرأ له ويكتب عنه[3] ... هكذا يفسرون هذا العجز عن الاعتزال، وهو تفسير لا أرتاح إليه ،

---

١ - الطبسان كورتان بخراسان

(٢و٣) الدكتور طه حسين بك : ذكرى ابى العـلاء : فصل فشله فى طلب العزلة ص ٢١٦ ، ١٧ ط اولى

لأن التأليف والكتابة يحوجان ألى واحد، أو آحاد قليلة ، لاينفى الاتصال بهم، تحقق العزلة والبعد عن الناس !! ثم هو فى كل حال ، تفسير احتمالى لاغير . . على أنك أن تركت هذا التفسير ، فأنك لن تترك ماتلاه من القول فى بيان أن الرجل ، لما سبق ، لم يلبث بعد استقراره بالمعرة أن اشتغل بالتعليم فالتف حوله الطلاب . . . . وماهو ألا الزمن القليل حتى كثر سوادهم حوله ، ثم لم تمض على هذه الحال أعوام حتى أخذ الناس يزورونه ، ويكتبون أليه ، فاستحالت عزلته ، ألى أشد أنواع المعاشرة [1] . .

لن تترك هذا القول دون تعليق ، لأن الحاجة إلى من يكتب أو إلى من يقرأ . لايترتب عليها أن يشتغل أبو العلاء بالتعليم ، ثم يكثر سواد الطلاب حوله، ثم يزوره الناس ، ويكتبون أليه ، فتستحيل عزلته ألى أشد أنواع المعاشرة .!!

* * *

أنك لتلمح فى صدر هذا الكلام ، المبين لسبب فشله فى طلب العزلة ، أشارة ألى حالته الجسمية ،وحاجته بها ألى غيره ، دون مضى فى ترتيب أثر آخر ، على هذه الحاجة ؛ وكان من القريب أن يقدر أثر هذه الحاجة النفسى فلعله يكشف وجه الرأى والتعليل ، لفعل أبى العلاء فى العزلة . . وهذا التفسير ـ فيما يبدو لى ـ هو تتمة الذى مضى من بيان أثر الناموس النفسى المعروف ، على المحرومين والمنقوصين ؛ ويرجع ألى أن الرجل بعد دوره الأول فى الاستعلاء على حالته المادية ، وبعد فشله فى ذلك ، وخروجه من بغداد ، جعل يستعلى على الدنيا والناس ، أو قل ، جعل يستعلى على غريزته الاجتماعية ؛ وهو استعلاء

---

١ — المصدر السابق

شاق مرهق لا يتيسر النجاح فيه ، ولهذا أعلن رغبته ، بل تصميمه على العزلة ، ولكن غلبه من نفسه ، ما بقى فيها من الفطرة الاجتماعية ، فلم يتهيأ له الاعتزال فعلم وألف ، ولقى الزوار ، وتلقى الكتب .. وهذه البقية الفطرية التى لم يتيسر له التغلب عليها ، هى التى ظل حتى آخر عمره ، يعترف بدفمها له وتأثيرها عليه ، اعترافا دقيقا ، صادقا ، شجاعا ، صريحا ، فيحدث عن حبه الدنيا وميله إلى لذائذها ، وأنه لم يزهد فيها ، ولكنها أخطأته ، فتجمل بالصبر مترفعا .. ، وظل يقاسى هذا العناء النفسى الدائم ، فيعلن حينا ترفعه عن عشرة الناس وانتقاصهم والنصح بالبعد عنهم وما إلى ذلك من مختلف معانيه فى الوحدة والنفرة ؛ ولكنه لا يعتزل ولا ينفر .. ولا يخطئك رغم ذلك من شعره ونثره ما يعطيك هذا التفسير النفسى الملحوظ : من الاختلاط ثم الفرار عجزا ، مع استمرار مراودة الآمال كقوله :

لجأت إلى السكون من التلاحى ... كما لجأ الجبان إلى الفرار
ويجمع منى الشفتين صمتى ... وأبخل فى المحافل باقتدارى
وكان تأنسى بهمو قديما ... عثارا حم فى شأو اغترارى
يئست من اكتساب الخير لما ... رأيت الخير وفر للشرار

١ : ٣٢٧

وقوله :

هويت انفرادى كيما يخف ... عمن أعاشر ثقل احتمالى

٢ : ٢١٠

مع قوله :

وما احتجبت عن الأقوام من نسك ... وإنما أنت للنكراء محتجب

١ : ٦٦

وهو ما تقرؤه فى نثره (١) إذ يقول « نابى تاب ، واليد ليست ذات أكتاب (٢) ، فانا للناس أخو جناب » (٣)

ولعلك مستطيع أن تلمح فى فشل طلبه العزلة مظهر ما يشكوه من مراودة آماله له مدى الدهر ؛ لأن هذه العزلة انطواء على النفس يليق به ويريحه ويستطيع معه الفراغ للعلم والتأليف دون توسع فى لقاء الناس ؛ ولكنها النفس الانسانية تنازعه ، وهو معها فى غلاب ، كما قال كثيرا فصدق الناس القول عن نفسه ... وأما

المـــرأة والنسل

فأن الرجل لم يحاول منهما شيئا ، مهما يختلف قوله بشأنهما ، كما أسلفنا بيانه ، وسوق غير القليل من متقابله ، ولسنا نطمئن إلى أن الإنصراف التام عنهما ، إنما كان من الرجل فلسفة تذهب الى كذا وكيت ، أو تلتزم ما رأت فى ذلك من رأى ، لأن الرأى كما أمضينا القول لا يتجه وجهة بعينها ، والتفلسف لا يؤيده شاهد ، بل تنقضه الشواهد ، فلأى شىء ترك أبو العلاء حياة الأسرة تركا تاما ، وهلا كانت نفسه تنازعه ، فيحاول ولا يصل ، كما فعل فى العزلة مثلا ؟ . لن يفسر هذا الترك بالنفور من الناس ، لأنه خالط كما سبق ، كما لا أحسبه يفسر بالفقر وقلة المورد ، لأن هذا الرزق الثابت ؛ كان يكفى أبا العلاء وخادمه ، فكان يكفيه مع زوج مكان

---

١ ـ الفصول ص ٢٧٠

٢ ـ الاكتاب غلظ اليد إذا استمرت على العمل

٣ ـ المجانبة

خادم ..! وهبها الحاجة وضيق ذات اليد . فهل تقوى الحاجة على منازعة نفسه، فلا يحاول الاتصال بالمرأة أبدا حتى فى عصر نشاطه واستعلائه على ضعفه، وجده فى سبيل النجاح ، حينما كان يطمع ويطمح، ويقول:

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل..

أما أنى منذ تركت الاستراحة إلى تفلسفه وتحريمه النسل فلسفة ، وملت الى البيان النفسى ، جعلت لا أقف عند هذه الظاهرة من فعل الرجل فى ترك الزواج والنسل ، بل أسأل نفسى : لماذا جانب أبو العلاء المرأة ؟ ومضيت أبحث عن سر أبى العلاء . . لم لم يتزوج ؟

وللمرأة مكانها فى فن صاحبنا ، مهما يكن القول الشائع ، عن رأيه فى الزواج والنسل ، ولقد جاءك من صورته الثانية التى لم يرسمها له مؤرخوه ولا دارسو أدبه ، ماقرأت فى ص ٧٨ وما بعدها، من رأيه الحسن فى المرأة . . . وهو بدقيق حسه وصريح قوله ، وجرىء تعبيره ، يعطينا الكثير عن منزلة المرأة فى هذا الفن ، أو مكانتها فى نفس الرجل . . ، فقد تغزل غير قليل فى شعره الذى يجمعه سقط الزند (١) وفى هذا الشعر ما يمثل العهد الأول من عهود حياته ، وهو عهد الشباب والأمل ... ومهما يكن التقدير الفنى لهذا الغزل عند دارسه ، ومهما يكن الرأى أنه تقليدى ، فانه لاشك يدل على شعور بالمرأة ، ومكانها فى الفن وهو قدر لامشاحة فيه . . على أنه بعد ذلك فى عهده الثانى لم تخل لزومياته الوقورة ، بل لم يخل نثره ، من حديث المرأة مع الخمر أو وحدها ، فوق ماسمعت من ذلك فى حديثنا السابق، عن رأيه غير الشائع فى المرأة . . وصفا لها ، أو حديثا عن حل الطيبات، أو عن الحرمان

---

(١) تجد من ذلك مافى ١: ١٨٢ و ١٨٥ و ٢٠٨ و ٢٠٩ و ج ٢ : ٤٦ و ٦٥ و ٧٨ و ١٠١ و ١٤٢ و ١٥٨ من طبعة مصر سنة ١٣٢٤ ، الى مواضع أخرى من شعره ونثره

من كذا وكذا منها ، كالطيف والرضاب ... الخ وإليك طرفا منه :

ياحبذا العيش الأنيق ولم ترم هدم السرور من الخطوب زلازل
١٥٩:٢

ولا قصرت لى أم ليلى بشر بها حنادس أوقات على طيال
١٨٧:٢

ويعجبنى شيئان خفض وصحة ولكن ريب الدهر غير شيانى [١]
وما جبل الريان عندى بطائل ولا أنا من خود الحسان بريان
٣٠٧:٢

خور الريق لسن بكل حال على طلابهن محرمات
ولكن الأوانس باعثات ركابك فى مهالك مقتمات
١٥١:١

بيض دَوارِ للقلوب ، كأنها عين بدَوّار وعين دَوارِ [٢]
هذى أوارى المنازل ما درت أنى أوارى فى حشاى أوارى
أما فوارى العين عنك فصادفت سمعا ، وأما الوجد منك فوارى
٣٣٣:١

ولو اطمأننت إلى أثر الشعور النفسى فى قوله ، لوجدت فى غزله ووصفه مثل الذى تجد فى ذمه لهن ، وفقده أياهن ، من الدلالة على الشعور بهن، بل على الاتجاه إليهن ، ولذلك مثل غير قليلة ، حتى فى حديثه عن التسبيح والتمجيد حين يطلب أو يغرى بالأجر عليه ، فيذكر أنه يوصل لرضاب الحور ، ويقول فى الفصول [٣] « ومن مزج رضابه بذكر الله ، لم ييأس من رضاب

(١) الشيان هو المعروف بدم الأخوين يريد به الحمرة وغضارة الحسن

(٢) دوار خواتل ، ودوار رمل مستدير ، ودوار بيت لهم في الجاهلية يطاف به

(٣) ص ٣٣٨

الحور . . . على أنك ستقرأ فى نثره ، من أسفه وتشهيه،ما هو جلى واضح ، كقوله[١] «الشبيبة ، أضعت الحبيبة ، فكيف ورأسك خليس؟ — سوداء مختلطة ببياض » .. وقوله [٢] مخاطبا الله تعالى « أن تصوير ابن آدم لعجب بديع ، ما أقدرك على تغيير ما نحن فيه ، إن أردت التبديل ، لا أكتمك ما أنت به عليم ، إن أسفى على الدنيا لطويل ، نفد عمرى وغيرى المصيب رأسى أسحم ، ولداتى شيب» وإذ يقدر اللذة،وعمارة الدنيا بها،فى مثل قوله [٣] «... وقول الحق أفضل من السكوت ، واستقامة العالم لا تكون ولذة الدنيا منقطعة،وخبر الميت غير جلى . . »..ولو ألممت ببكائه الشباب ، والتبرم بالمشيب وما يتصل بذلك ،لأوفيت على كثير من الاتجاه إلى المرأة . . ولهذا كله درسه المستقل المفرد ، وحسبنا هنا تقرير أن أبا العلاء متجه إلى المرأة شاعر بالفطرة البشرية ، متنبه إلى الحاجة الانسانية ، فلماذا أمسك عن الزواج إذن ؟

إن الرجل لم يترك هذا السؤال بغير جواب ، فقد تحدث فنه عنه غير قليل من الحديث ، وقد أشرنا أيضا إلى بعضه ، فيما مضى من حديث، عن المرأة واختلاف رأيه فيها ، وبقى من ذلك ، مالو أحطنا به وتأملناه . فلعله موف بنا على تعليل ترتاح اليه النفس، أكثر من قول القائلين بالتفلسف ، وتحريم النسل،وما إلى ذلك ، من فروض تركوا فيها واقع الرجل ، وأهملوا دراسة فنه ، ثم راحوا يتحدثون عن كل أولئك من أمره ، بعيدين عنه ، غير متصلين به !!

تحدث أبو العلاء عن زواجه فى مثل قوله :

أنا للضرورة فى الحياة مقارن   مازلت أسبح فى البحار الموج
وصرورة فى شيمتين : لأننى   مذ كنت،لم أحجج،ولم أتزوج

١٧٣:١

---

(١) — الفصول ٢٦٧ (٢) الفصول ٢٦٦ (٣) الفصول ص ٣٥٨

وقوله :

أسير عن الدنيا، وما أنا ذاكر   لها بسلام ، إن أحداثها حمس (١)
ضرورة ما حالين: ما لكعابها   ولا الركن، تقبيل لدى ولا لمس
ولم أرث النصف الفتاة ، ولم ترث
لى الربع ، بل ربع تطاول أو خمس (٢)

٢ : ١١

فهو مع حديثه فى هذه الأبيات الأخيرة ، عن التقبيل واللمس ، والحرمان والشدة ، يجمع بين الحج والزواج ، فى أنه صرورة عنهما، كما قال فى البيتين السابقين . . (صرورة) و(مقارن للضرورة)، فلأى ملاحظة جمع بين الحج والزواج وحرمانه منهما هذا الجمع ؟؟ انه يجمع بينهما أيضا ، فى حديثه عن غيره ، كما جمع بينهما فى حديثه عن نفسه ؛ فمن قوله فى غيره :

قد يحج الفتى ، ويغنى بعرس   وهو من صرة اللجين صرورة

١ : ٣٠٣

فلأمر ما هذا الجمع بين الحج والزواج ؟ أهو يقدر فيهما الاستطاعة والمقدرة المالية ، بملك صرة اللجين ، وهو لا يملك شيئاً ؟ . . ربما كان هذا هو سبب الجمع بينهما ، ويرجحه قوله بوضوح فى الحج :

لا ملك لى ، وأرى الدنيا تحاصرنى   وما حججت، وقد لاقيت إحصارا

١ : ٢٩٧

وهذا الإحصار الذى يذكره ، اصطلاح فقهى ، يريدون به ، المنع من الحج بعذر قاهر من مرض أو عدو يحول بين الشخص واداء الشعائر ، وهم يعقدون له فصلا خاصا ، فى كلامهم عن الحج . . فهل ذكر هذا الإحصار، يفسر

---

(١) أى شديدة
(٢) الربع والخمس من أظماء الابل

المعنى الذى جمع من أجله صاحبنا ، بين الحج والزواج ؟؟ . . إن أبا العلاء قد يكون محصرا عن الحج بضعفه وعجزه ، إذ هو مستطيع بغيره — كما يقول — لا بنفسه ؛ وهو لا يجد نفقة السفر له وللخادم يعينه ، ثم هو فى كبرته قد انضم إلى أسباب إحصاره أيضا ، الضعف الذى لعله لا يستطيع معه السفر . . فهل منعه من الزواج ، أنه غير مستطيع المهر والنفقة ؟ . . إنه يتحدث عن الحجا والعجز مرة أخرى فى قوله :

ولم أقض حجا فى منى وبلادها وكم عاجز قد زارها متنفلا

١٦٨:٢

فقد تكون فى هذا القول إشارة ما ، إلى عجزه عن الحج . . وجملة هذ تلفت النظر — فى غير بعد — إلى أن الشيخ قد عجز عن الحج والزواج أو أحصر عنهما كما يقول ، ما دام يجمع بينهما هذا الجمع أكثر من مرة ، وهى نتيجة لا بعد فيها ، ومقدماتها تعطيها من قرب ، فبقى أن نعرف سبب إحصاره عن الحج والزواج ؟ أهو المال وعدم وجدانه ؟ أم هو شىء آخر ؟ وهل سبب الإحصار واحد فيهما ؟ . . . لقد كان العجز المالى سببا واضحا فى الحج ، لأنه رحلة ونقلة ، تتطلب نوعا من القدرة ، وتلزم بمزيد من المال لا يمكن معه قضاء الأمور — كما فى الاقامة — بما يتيسر . . ولكن العجز المالى فى الزواج ، ربما لا يظهر سببا للإحصار ، لما قدمنا من أن أبا العلاء كان يعيش مع تابع ولا بد ، فلو كان هذا التابع فتاة ، أو امرأة ، كيفما كانت لم يزد عليه بذلك شىء من المال . . بل لعل أبا العلاء كان يجد فيها معونة على المعيشة بدخله اليسير ، لا يجدها بدونها ، مع الخادم الرجل ... ولم يكن يعجزه أن يجد كريمة فقيرة ، تشاركه هذه الحياة الخفيفة الحاجات ، المحدودة المقدرة ... ومن ذلك وما إليـــه ، نستطيع الاطمئنان إلى أن العجز المالى ليس سببا قويا للإحصار عن الزواج ، ومن

الدقة أن نمضى فى التماس سبب آخر ... وقد وجدنا فى الحج سببين للعجز : هما المال، ثم ضعفه الى حد ما... وقد بعد – الى حد ما كذلك – ان المال من أسباب العجز عن الزواج ، فبقى ان هناك سببا آخر ، فهل هو ضعف عن الزواج، وهل فى المسألة اعتبار جسمى جنسى له دخله فى هذا التصرف؟ ... لا بعد فى أن يكون ذلك ، وواجب البحث يقضى علينا بالمضى فى اختبار هذا الفرض . .

وفن أبى العلاء هو دائما مادة هذا الاختبار وأداته ، لأنه فن دقيق ، صريح ، صادق ، عميق وعند هذا الاختبار ، نجد فى أدب صاحبنا، ذكر سر أو أسرار فى حياته ، قد تكون أسرار الكون والمعرفة أحيانا ، كما يحتمل من قرب ، أن تكون أسرارا من غير هذا الصنف ... ومن حديثه فى الأسرار ، التى لا يبدو أنها أسرار الكون وخفايا الحقائق مثل قوله :

ولدى سر ليس يمكن ذكره يخفى على البصراء وهو نهار

١ : ٢٧٥

فما هذا السر يا ترى ؟ . . أنه يذكره فى سياق الحديث عن بنى آدم وولادة أمهم إياهم عاركا ، فى غير طهر ؛ كما سيتحدث بعد بيتين اثنين من ذكر هذا السر، عن الغريزة المسيئة وزجرها ، مريداً بها تلك الغريزة الجنسية، لقوله:

فازجر غريزتك المسيئة جاهداً واستكف أن تتخير الأصهار

فهل يرجح هذا الجو العام للحديث، أن الحديث عن سر يتصل بهذه الغريزة ؟ . وإن كان يقول عقب السر مباشرة :

أما الهدى فوجدته ما بيننا سراً ، ولكن الضلال جهار

فان هذا السر من الهدى غير ما فى سياق الحديث العام ، ومع هذا فترجيح أن السر الأول هو سر الغريزة لا بعد فيه . .

وتسمع من حديثه فى الأسرار قوله :

طوى عنك سراً صاحب قبل شيبة   فلما انجلى عنه الشباب جلاه

٢ : ٣٣٦

فهو قبل هذا ببيت واحد ، يتحدث عن حمار الوحش ، يفتك به القدر فيطلق عرسه كارها ، ثم يأمر فى البيت الذى قبل حديث السر، بعدم الاستسلام لهم النفس ، كما يأمر فى الشطر الثانى بالادلاج اذا مانام الركب ،وبعدهذا يذكر حديث السر المطوى قبل الشيب ، والمجلو بعد انجلاء الشباب ، وقريب من السياق،ومن ألفاظ البيت ، أنه سر يتصل بالغريزة المذكورة ، ومن الممكن حقا أن يكون سر الزواج . . فتضم الى هذا قوله،حين يتحدث عن حياته،وأنه فيها سامرى ، يقول : لامساس ، كما قال السامرى فى بنى إسرائيل ، وذكره السر فى هذا المقام ، بقوله :

ولم يطل سامرى حديثى   بل عشت فى الدهر سامريا
لو علم العاذلون سرى   لأصبح القـــوم عاذريا

٢ : ٣٦٢

فهو سر الوحدة ، وسر السامرية التى تقول لا مساس ، وهو سر يعذر من يعرفه فى هذه الوحدة والسامرية ، فهلا يرجح هذا أنه سر ترك الزواج ، أو سر الغريزة كما قلنا . ؟ ؟ . . أحسب أنه ترجيح مقبول .على أنك لوجمعت الى هذا مثله ، من قول الشيخ ، لوجدته يزداد جهرة ، فهو فى صراحته التى عهدناها ، وشجاعته التى كثرت شواهدها ، وفى دقته التى أودع بها خواطره آثاره الفنية ، يقول ما هو أكشف وأبين كقوله :

ولم يلق فى دهره أجربى   هوانى فلينأ عنى هوانى(١)

(١) أى هوانيه الذين يهنئون جربه ، أي يطلونه بالقار ونحوه

وعندى سر بذى الحديث كنت عنه فى العالمين الغوانى

٢ : ٣٢٨

فما السر البذى الحديث ، الذى تكنى عنه الغوانى فى العالمين ؟ أليس هو السر الذى ليس يمكن ذكره كما قال ، وهو السر الذى يخفى على البصراء لا يعرفونه ، وهو نهار فى آثاره ونتائجه ، كما وصفه ايضا ؟ ؟ هو هو غالبا والسر البذى ، الذى لا يمكنه ذكره ، والذى تكنى عنه الغوانى فى العالمين ، والذى هو خفى على البصراء ، هو سر الغريزة فيما ترجح مطمئنا .. هو سر الإحصار عن الزواج ، هو السر الذى يزيده كشفا قوله فى البيت التالى لما سبق :

إذا رملة لم تجىء بالنبات فقد جهلت أن سقتها السوانى[1]

فلم يكن إلا جهلا أن يتزوج ، وهو كالرملة التى لا تجىء بالنبات . . . ولعلك تجد شواهد فى فن الرجل الصريح، على هذا السر، وإن لم يذكر فيها لفظ السر كأن تسمعه يقول ناظما :

وهممت ان تحظى ، ولكن طالما خذلتك عن نيل المراد خواذل

٢ : ١٥٩

ويقول ناثراً [2] « أحب الدنيا وآلتها ليست فى ، وقد يئست من بلوغها واليأس مريح ، فالام التشوف الى الضلال؟؟ » ..فهل صدق أحد الناس حديث نفسه ، فى حب الدنيا والتشوف إلى ضلالها ، كما صدق أبو العلاء الصريح ؟ أحسبه بهذا الصدق نفسه، قد صدقهم الحديث عن حظه من الغريزة حتى ما كانوا فى حاجة بعدها الى أن يرجموا بالغيب ، ويذهبوا مع الفروض، ويتركوا مع

(١) النوق يسقى عليها

(٢) الفصول ص ٢٥٨

ذلك كله ، حديث الرجل عن واقعه،وتقديره الصحيح لصلة الجسم بالنفس، «وأن إستقامة العالم لاتكون ولذة الدنيا منقطعة » كما يقول هو

أما إنى من هذا الطريق النفسى الواقعى،أطمئن إلى أن صاحبنا قد منعه من الزواج مانع مادى ، وأنه أحصر عن الزواج إحصار المحرم بالحج عن أداء الشعائر . . ولكنى لاألقى غيرى بهذا ، إلا على أنه فرض فى فهم هذه القطع من الشعر ، وهاتيك الاشارات البعيدة والقريبة من النثر .. فرض أضعه بين يدى الدراسين ، ولهم رأيهم فى قبوله أو رفضه . . رغم اطمئنانى أنا إليه ، كما اطمأننت إلى ردصنيع أبى العلاء كله فى الحياة الى أسباب واقعية ،قضت بها حاله الجسمية ، و نفس مقيدة بهذا الجسم . وهى فيه أسيرة ، وبه لا بغيره تصول .

***

على أنى حين أترك للدراسين رفض هذا الفرض أو قبوله ، يدفعنى حظى من الاطمئنان له ، إلى أن أدعو الدراسين من النفسيين ، الى تكملة إيضاح هذه الحال النفسية،وتبين سائر آ ثارها . بعد ما بدا فيها من أثر الآفة الظاهرة ، ثم آفة الغريزة الخفية على البصراء ، فان هذه الأحوال من شخصية الرجل لتفتح آ فاقا فسيحة من البحث النفسى ، وتلقى على فنه أضواء لا بد منها لفهمه . . بعد مارأينا منه المثل القوى الواضح لضرورة فهم الأدب ذلك الفهم النفسى

وأخيراً فى سبيل تحديد القول . وضبط الفكرة ، أجمل خطوات هذا الرأى ، فأبين فى ايجاز أنى :

قلت آنفـــا

١ — إن أبا العلاء قد استمر الحديث عنه يتجدد ، وهو كقوله :خليق بأن يكرر ليفهم ، فحاولت فهمه ، على أن يكون عملى فى ذلك مثلا من الفهم النفسى،

للأديب وأدبه : وتبعت فى ذلك ما اشتهر على الأعصر، من نعته بالفلسفة ، فالتمست رأيه فى أصول التفاسف ومسألة المعرفة ، ثم فى آراء الفيلسوف الثابتة، التى أقام عليها مذهبه ، فكانت النتيجة :

٢ — أن أبا العلاء ، لم يترك فى مسألة المعرفة ، ومنهج التفكير ، شيئاً لم يقله ، كما لم يقف فى ذلك عند رأى بعينه ، بل ذكر من ذلك كل متقابل ومتخالف . فتركت مسألة المعرفة إلى آرائه، ألتمس ما ثبت منها ، واخترت ما يسمى بالفلسفة الإنسانية ، لبعدها عن الغموض والاضطراب ، ولأنها ناحية تأثير الفلسفة على سلوك الفيلسوف ، ولأن مفلسفيه ، يذكرون اهتمامه بشئون الحياة الإنسانية ... فتبين من النظر فى ذلك :

٣ — أن أبا العلاء تتقابل آراؤه فى كل شىء ، من الدين والدنيا ومن شئون السلوك الانسانى كله ، حتى ليمكننك وضع ثبت من ذلك، بمتقابلات معانيه ، يساير فيه التيار الموجب ، تيار سالب . . . ومن هذا استطعت أن أقول :

٤ — إن أبا العلاء من حيث المعرفة ، أو المذهب الفلسفى ، لم يعين شيئاً تستند اليه فلسفة . . ثم تبين إلى جانب ذلك أنه لم يترك التفلسف فقط ، بل كانت له اتجاهات تخل بالمنهج الفلسفى إخلالا واضحا . . فقد حدد مقدرة العقل ، وقرر وجود الأسرار التى لا ترام . . ونفى ثبات النواميس واطراد السنن الكونية ، وترك الكون للمشيئة المطلقة ؛ وليس كذلك يقول — حتى الدينيون المحدثون ... كما بينت فى نفى الفلسفة عنه ، والأخلال بمنهجها، نواحى أخرى متعددة

وإلى هنا تعين ألا تفهم آثار أبى العلاء بمنطق الفلسفة المنظم للتفكير العقلى ؛ وبقى أنه متفنن، أديب ، لعله تبع منطق العاطفة ، وهدى الوجدان ،

فوجب أن نفهمه فهما نفسياً ، تدل فيه حالة النفس على ما اتجه اليه إحساس الرجل ، وما وجده من وقع الحياة على روحه ، لا على عقله . وفى معاناته المنطقية التفكيرية ، ومن أصول هذا الفهم النفسى :

٥ — أن أبا العلاء من حيث هو إنسان، خاضع للنواميس النفسية العامة تترك حاله الجسمية فيه أثرها ، أو آثارها النفسية ، والرجل ذو آفة شديدة الوقع ؛ فلا بد أنها تركت فيه ، أثراً فى تناوله، وتفننه، وتصرفه.... والناموس العام للناقصين والمحرومين هو : فعل مركب النقص أو عقدة العجز فى نفوسهم ، وأبو العلاء منهم ، فلا أن يكون لهذا الناموس مظهره فى حياته ... وبالاستعانة بأقوال أبى العلاء نفسه، وخواطره الخصبة الوافية والتى دونها، تبين:

٥ — أن أبا العلاء قد كانت حياته استعلاء منصلا ، وتعويضا متلاحقا ، إذ مر بدورين واضحين ، فى فهمه هو لنفسه ؛ ووصفه لشئون حياته فى آثاره التى بلغت حد الاعترافات . الصريحة المفصلة الدقيقة الصادقة . . وبملاحظة هذا الناموس يمكن تفسير وقائع حياة أبى العلاء ، ويتجلى مراده مما يقول نثراً وشعراً .. ومن كل اولئك يصدق حكمنا عليه بصحة فهمنا له فعرضت لفهم أبى العلاء من قوله المتقابل ، وفعله المسير بالمؤثرات النفسية .. فتبين من ذلك :

٦ - أن أبا العلاء تقنع وصبر ، على رغبة فى الحياة ملحة.. فليس هو فيلسوفا متقشفا ولا زاهدا قد غلب نفسه بل هو محروم مترفع

٧ - ان ابا العلاء لم يستطع ان يعتزل الناس، لبقية حبه الحياة، وعنائه بالحالة النفسية التى قاساها طول حياته ؛ بفعل الناموس النفسى

٨ - بقى النظر فى موقفه أمام المرأة والنسل . وقد حق علينا فهمه كذلك

فهما نفسيا، بعدما تعين أن هذا هو طريق الفهم السليم، فتبين من النظر فى فنه ذاته

٩ — أن أبا العلاء — فيما أرجح — قد منعه من الزواج والنسل، مانع جنسى غير الفلسفة والزهد، ولهذا المانع أثره الخطير فى نفسيـة الرجل. كما كان لآفته المادية أثرها، ودارسو النفس الانسانية خلقاء بأن يزيدونا فهما لأثر هذا المانع فى نفس الرجل ... وبعد ما تبين انه ليس فيلسوفا. ولا خاضعا للمنطق العقلى .. وبعد الذى رأينا من معونته الصادقة القوية لنا على فهم نفسه من آثاره الصريحة الجريئة الصادقة. أدركنا فى جلاء :

١٠ — ان ابا العلاء رجل وجدان. دقيق الحس، عميق الادراك. صادق التعبير جدا، جرىء التعرض للمعانى والخواطر. كاد يكون — أو قد كان فعلا — فى الأدب العربى، هو الرجل الذى وجد نفسه وتحدث عن نفسه، أدق حديث وارهفه حسا. وأعمقه تأملا .. لم يدع نفسه قيثارة لاطراب الآخرين. ولا قصبة تصفر فيها رياح أهوائهم، واكاذيب مجدهم،

وإنى بعد هذا الاتصال الطويل والتفهم المتأنى لأبى العلاء أقول :

سلام على أبى العلاء بين ذوى النفوس الصادقين

سلام على أبى العلاء بين العظماء من المتفننين

سلام على أبى العلاء بين الأدباء الخالدين

***

وإذ انتهيت إلى مثل هذا من الرأى فى أبى العلاء، فقد حق على أن أقول لأصحاب الأدب وتاريخه :

١ — هذا أبو العلاء فى الضوء النفسى ؛ فأعيدوا النظر فى كل ماقررتم، عن تفلسفه، وتدينه وزهده، وحياته .. الخ وأصدروا فى ذلك كله أحكاما أصح وأدق، وأصدق ... ثم أقول لهم :

ـ إن أبا العلاء بقوة نفسه ، قد قدم لنا فنا صادقا ، أعطانا الفهم النفسى له ، مثلا واضحا،لما تجديه الدراسة النفسية للأدب وتاريخه ، من دقة وصحة فى تذوق الأدب ، وتفهم الحياة الفنية . بل الحياة الخاصة ، لأصحابه ،وتأريخ ذلك كله ، تاريخا محققا،لا تقليد فيه ، ولا تضطرب أحكامه باضطراب أهواء الناقلين أو خطأ مناهجهم ، حين كان يعوزهم التحليل ، وتخدعهم الظواهر . . وبهذا المثل تبين لنا أنه ينبغى أن ندرس أدباءنا جميعا دراسة نفسية ، وإن شق ذلك علينا ، وخفيت معالم طريقنا اليه،لأننا بدون هذا الفهم النفسى ، والتصحيح الضرورى،لمنهج درس الأدب ، لن نتذوق هذا الأدب ،ولن يصح لنا حكم ناقد ، ولن نكتب مع ذلك ، التاريخ الصحيح للأدب ...

فاعملوا- ياقوم-جادين ، على رفع القواعد من المدرسةالنفسية ، فى درس الأدبوتاريخه .. وإنكم إن شاء الله لعاملون

أمين الخولى

فهرس الكتاب

صفحة

تصويب

ص	س	خطأ	صوابه
٣٧	١٧	كما	فما
٤٣	١١	فيقول	انظر ص
٩٢	١٧	لتقيته	لتقية
٩٦	٣	هى	هو
٩٦	٦	نفسه	قواه
١٠٥	١١	فلم	. . .
١٠٧	١٠	تسمح	تسمع
١١٤	١٠	بنا	ربنا
١١٦	٢	يئو	يئوب
١١٦	٤	الحجرة	الجمرة
١١٦	١٦	عن	على
١١٨	٩	بعبارة	بعبارته
١١٩	٢٠	وقد	وعد
١١٩	٢١	لايحتل	لايحتمل
١١٩	٢١	من	فهى
١٢٠	٣	ففى	فى
١٢٠	٨	لاهوية	لاهوتية
١٢٠	١١	ولا بماتحتمله	وليس مما لاتحتمله
١٣٧	١٠	شواعده	شواهده
١٣٧	١٨	والاستعانة	والابتداء
١٣٧	١٩	وفهم	وتبين
١٣٨	١٥	فى المظاهر	إلا فى المظاهر
١٤٢	١٢	فعنى	نعنى
١٤٤	١٣	بإفهافك	بإفهامك
١٥٥	١٥	وأسر	وأمر
١٥٧	٢١	مايصلنا	مالم يصلنا
١٥٨	١	يسخر	لم يسخر
١٦٨	١١	وصفه	ووصفه